



رمزية الحيوان في رواية "خلدولوجيا" لسعد سعيد - قراءة إيديولوجية

أ.م.د. سعد داحس ناصر

كلية الآداب/ جامعة واسط

تاريخ الاستلام : 2022-03-14

تاريخ القبول : 2022-03-23

ملخص البحث:

يسعى البحث الموسوم بـ (رمزية الحيوان في رواية "خلدولوجيا" لسعد سعيد - قراءة إيديولوجية) إلى بيان أهمية رمز (الحيوان) في مقارنة المضامين الإيديولوجية في الرواية، وقضايا صراع الذات مع الآخر، وذلك عندما يبالغ الروائي في استعمال الرمز في النص الروائي، ويكتفه ويحوّله إلى رموز أخرى، بعد أن وضع نصب عينيه التراث الأدبي العربي الذي وُظّف فيه الحيوان، والتاريخ، والواقع، واستعمل ذلك كلّه في التجريب الروائي. وقد تناول البحث رموزاً كثيرة في الرواية، وغض الطرف عن رموز أكثر فيها، لتضطلع دراسات أخرى بها، إن أراد أحد الباحثين ذلك؛ بسبب ضيق المقام في هذا البحث، فضلاً عن الرغبة في التركيز على الفكرة الرئيسية في البحث؛ لأنّ كلّ حدث هو رمز، وكل شخصية هي رمز، وكل شيء هو رمز في هذه الرواية. واعتنى البحث أكثر بالرموز الدالة على الصدام الحضاري، والصراع الأزلي بين الشرق والغرب، وعلاقة الذات بالآخر، والفرد بالسلطة. وقد أفرزت القراءة الإيديولوجية - التي استندت إلى أحداث تاريخية وسياسية حقيقية - نتائج واضحة، أظهرت عظم العلاقة بين الرمز ومضمون الرواية، والرمز والتاريخ، والرمز وإيديولوجيا الرواية، والرمز والإيديولوجيا في الرواية، بعد أن وُفّر الرمز شبكة من الخطوط في الرواية وأسس نظاماً من العلاقات فيها، جعل الرواية ذات بناء فني صارم، تماسك لافت في أحداثها، بالاستناد إلى الاستعارة التي وفّرها الرمز.

الكلمات المفتاحية:- الرمز، الحيوان، الرواية، الإيديولوجيا، الذات، الآخر.



Animal Symbolism in Saad Saeed's Kholdologia: An Ideological Reading

Dr. Saad Dahis Naser

sdahis@uowasit.edu.iq

Receipt date: 2022-03-14

Date of acceptance: 2022-03-23

Abstract

The paper, entitled "Animal Symbolism in Saad Saeed's Kholdologia: An Ideological Reading," attempts to explore, through the significance of animal symbolism, ideological topics, and other topics related to the self-struggle with the other. These topics were exemplified when the novelist overemphasizes the use of the symbols in his novel in a condensed way to transform them into other symbols especially when he examined the Arab folklore about animals, history, and reality in his narrative experimentation .

The study investigates many symbols used and the novel and overlooked more to open the space for other scholars to examine. It aims to focus on the main symbols related to the main themes in the novel such as the clash of civilization, the west-east conflict, the relationship between the self and the other, and the relationship of the individual to power.

Based on historical facts and political reality, the study concludes how the symbol fabricates its web to bring all the contents of the novel together such as the theme, history, and ideology. Hence, the symbol, based on the metaphoric language equipped, makes all these elements relevant to the artistic structure of the novel and its main themes.

Keywords:- The Symbol, The Animal, Novel, The Ideology, Self, The Other



المقدمة:

ارتبط الحيوان بالفن منذ جذوره الأولى، ليشغل مكانة واضحة في بداياته، التي استندت إلى تداخل الطبيعة في الفنون، وتأثيرها فيه عن طريق محاكاتها، فقد نُقش الحيوان على الأحجار، والصخور، والجدران في الأمم القديمة، وكانت هذه المجسّدات تحمل طاقة رمزيّة دينيّة، أو نفسيّة، أو اجتماعيّة، أو غيبية ما وراثية تتصل بالأساطير والمعتقدات، وهذا ما تؤكّده آثار الحضارات القديمة الكبرى مثل: حضارة وادي الرافدين والحضارة المصرية واليونانية والرومانية وغيرها. ثم تسلّل الحيوان إلى الآداب القديمة بوقت مبكّر، فتجلّى في ملحمة (جلجامش) الشعرية البابلية التي كُتبت باللغة السومرية، والتي تعود إلى سلالة أور الثالثة، إذ تضمّنت مجموعة من الحيوانات التي اصطبغت بصبغة رمزيّة مثل: الوحش المخيف (خومبابا) حارس غابة الأرز المقدّسة، و(ثور الجنة المقدّس)، اللذين قُتلا على يد (أنكيو) و(جلجامش)، وكان هذان الحيوانان مؤثّرين في أحداث الملحمة ومضمونها. وكذلك الحال مع (الإلياذة) و(الأوديسا) اللتين زخرا بالحيوانات الحقيقية والخرافية، فضلاً عن (حصان طروادة الخشبي) الذي أدّى دوراً مهماً في تغيير مسار حرب طروادة في الملحمتين. ومثل ما مرّ اعتمد المسرح اليوناني كثيراً على الحيوان في نشأته الأولى، ويكفي أن يكون مصطلح (التراجيديا) الذي يدلّ على نوع رئيس في المسرح اليوناني يعني: (أغنية الجدي) أو (جلد الماعز).

أمّا في تراثنا العربي، فلا يمكن إغفال أثر الحيوان في المنتج الأدبي بمختلف أنواعه، ولا سيّما في أول الآثار الأدبية العربية التي وصلت إلينا، أعني: الشعر الجاهلي الذي زخر بوجود الحيوان في غير غرض من أغراضه على مستوى الحقيقة والرمز، وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى. وانتقل توظيف الحيوان في الشعر الجاهلي إلى شعر صدر الإسلام والعصر الأموي والعصر العباسي. كما ظهر في السرد العربي القديم الفصيح والشعبي، ولعلّ أهم نتاجين أدبيين تضمّنا الحيوان في أدبنا القديم: كتاب (كليلة ودمنة) لابن المقفع (ت ١٤٢هـ)، المترجم عن الأدب الفارسي الذي لا تخفى فيه أهميّة رمزيّة الحيوان، وكتاب (ألف ليلة وليلة) الذي اجتمعت فيه ثقافات عربيّة وغير عربيّة، قام بتأليفها وتوليفها المخيال الشعبي العربي في ذلك الوقت، والذي احتشدت فيه حيوانات مختلفة، بعضها حملت على الحقيقة، وأخرى على سبيل المجاز، وثالثة جاءت مؤطرة بإطار من العجائبيّة والأسطورة، ورابعة قد تأنسنت فصارت تتصرّف كما يتصرّف الإنسان وتفكر مثلما يفكر.



لقد استلهم الروائي العربي في رواياته التراث السردى العربي أو المترجم إلى العربية الذي وظّف الحيوان في الأعمال الأدبية أثناء النضوج الأدبي العربي في موضوع الإشارة إلى السلطة والصراع بين القوى والأقطاب، سواء في كتاب (كليلة ودمنة) أو في كتاب (ألف ليلة وليلة) ، وكتب أخرى ذات أهمية أدنى في هذا الشأن، لكننا لا نعدم فيها ثيمة الصراع بين طرفين متضادين، يدلان أحياناً على الحاكم والمحكوم، أو السلطة ومن يقع تحتها، مثل كتابي: (ثعلبة وعفراء) و(النمر والثعلب) لسهل بن هارون (ت ٢١٥هـ)، وبعض المقامات مثل: (المقامة الأسديّة) لبديع الزمان الهمداني (ت ٣٩٥هـ)، وغيرها من كتب التراث القصصي العربي. غير أنّ الروائي حاول الانسلاخ من رتابة الرمز الذي يمثله الحيوان في تلك السرديات التراثية، إذ تجاهل بعض الحيوانات الرئيسية فيها، أو لم يعطها دوراً سردياً كبيراً أو مهماً في روايته من جهة، أو وظّف حيوانات أخرى لم يحفل بها السرد القديم من جهة ثانية، وهذا الأمر حالة من حالات التجريب الذي ينهل من التراث مادته.

وبعد الانقطاع النسبي عن توظيف الحيوان في السرد، انتبه مجموعة من الروائيين العرب في المدّة الأخيرة، ومنهم (سعد سعيد) في روايته (خدلولوجيا) إلى أهمية الحيوان في التعبير عن أفكاره ورؤاه وهواجسه، وفي خلق تيار سردي تجريبي معتمد على التراث في موضوع رمزية الحيوان، وطاقة ذلك الرمز المشعّة والمتشظية. وربّما للوهلة الأولى قد يقتحم الذهن غياب فكرة عدم التوافق المعنوي بين استلهم التراث والتجريب، إلا إنّ هذه الفكرة ستتبدد بوساطة تفكيك خطاب الرواية الحديثة وبنائها، وأسلوب توظيف الحيوان فيها، وإن اتفقت مع السرد القديم في أسس توظيف الحيوان، والشكل العام للتوظيف، فضلاً عن وجود بعض الشخصيات الحيوانية المشتركة بينهما، وإن كانت مختلفة في الدور المناط بها. ولا شكّ في أنّ الروائي قد يصعب عليه أن يبني روايته على شخصية الحيوان بالكامل، إن لم يكن قد اطلع على التراث السردى العربي الذي قارب هذا الموضوع بفنية عالية، وأسلوب مائز، ورؤية جادة، وإقناع سردي لافت؛ وعلى أساس ذلك استلهم الروائي في العصر الحديث التراث السردى القائم على موضوع الحيوان، أو الذي تضمّن الحيوان بكثافة في التجريب السردى، عن طريق آلية من آلياته، أعني على وجه الدقة: التغير، إذ اعتمد الروائي طاقة الرمز الحيوانى وكثافته، وتعدد دلالاته، فضلاً عن أنّه تجاوز شخصية الحيوان الحقيقية في السرد، ولم يضع مسألة أنسنة الحيوان بالمرتبة الأولى في سرده، أو جعله رمزاً للإنسان فحسب، بل تعدّى ذلك، بعد أن وظّف الحيوان في الرواية رمزاً لاهتمامات كونية، وصدّامات حضارية، واضطرابات نفسية، وربط ذلك بالقضايا الكبرى في بداية العصر الحديث، وقضايا الحاضر، التي تلامس هوية العربي، وموقفه من أحداث الراهن.



إنّ الرواية مدار البحث من الروايات التي تهتم بالنقد الحضاري، ونقد العقل الإنساني، ولاسيما العقل الأوربي الذي أحدث الدمار في المكان والإنسان منذ أن دارت عجلة الصناعة الأوربية في مراكز أوربا الكبرى، ولكن لم يكن العقل العربي بمنأى عن هذا النقد أيضاً. ومن جانب آخر تبرز الرواية بوصفها خطاباً نقدياً يستهدف الذات، لنكوصها عن حقها التاريخي، وتقاوسها عن دورها الحضاري، فضلاً عن تقهقرها، وجمودها، إلى الحدّ الذي يصل فيه هذا النقد إلى (جلد الذات)؛ لإحداث صدمة عنيفة في واقعه المزري، أملاً في تخطّي المرحلة الحرجة التي تعيشها الذات. ويتسنى ذلك كلّه عن طريق توظيف الحيوان الذي كان رمزاً لعوالم كثيرة مثل: الدول، والصراعات، والمفاهيم، والمهيات، والأشياء بمختلف أنواعها وتناقضاتها، والصناعات، والثروات، والفلسفات السياسية والاقتصادية، وغير ذلك، فضلاً عن الإنسان بطبيعة الحال.

أعطى توظيف الحيوان الروائي الحرية الكاملة في أن يقول ما يستطيع قوله، وما لا يستطيع قوله (المسكوت عنه) على حدٍ سواء، في ربط محكم بين الحيوانات الرامزة وما تحمله من دلالات ومضمون الرواية، بالاعتماد على تاريخ الإنسان الحقيقي وصراعاته الموثقة، مع عدم إغفال الخيال؛ لأنّ الرواية أولاً وأخيراً فنّ تخيلي، وإن تضمّنت أحداثاً وشخصياتٍ وصوراً واقعية، أو خيالية تُحيل إلى الواقع. بيد أنّ القارئ الذي لا يعرف تفاصيل أحداث العصر الحديث الكبرى - ولا سيما بروز أوربا والغرب- في كلّ بقعة من بقاع الأرض شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالاً، وأخصّ بالذكر الأحداث العظيمة التي يستند إليها الواقع الحالي، يصعب عليه فكّ الشفرة الترميزية في هذه الرواية، وتفكيك أحداثها. ويمكن تجاوز هذه الصعوبة انطلاقاً من توظيف الحيوان، للوصول إلى إيديولوجيا الرواية، والإيديولوجيا في الرواية، ورؤى الواقع، ورؤيا الروائي.

إنّ الرواية تاريخية حوارية، بيد أنّ أدقّ وصف يمكن أن توصف بها أنّها رمزية بامتياز لافقت؛ وذلك واضح من احتشاد الرمز في منتها، بصورة قد تكون غير مسبوقه في أي عمل أدبي آخر، فضلاً عن عتبي: العنوان (خلدولوجيا)، والإهداء الذي نصّه: (إلى جميع الحيوانات الضالة، عسى أن ترعوي!) . وكان من الصعوبة فكّ رموز الرواية ابتداءً، ولكن ما إن يتكشّف بعضها حتّى يتكشّف بعضها الآخر تبعاً، بعد أن يضع القارئ شبكة استعارية من الخطوط والصلات تجمع بين هذه الرموز، باعتماده على خبرته التأويلية والتاريخية، وقدرته على تحديد مكن الاستعارة المرمزة؛ لأنّ الرمزي يتجلّى دوماً بوصفه "علامة تحلّ مكان شيء ما أو معنى معيّن، ومن ثمّ، فهو شكل من أشكال التمثيل القائم على العلامات. وككل الأنظمة العلاماتية، لا يتم توليد المعنى؛ لأنّ الإحالة الرمزية للشيء تمتلك معنى ماهوياً أو جوهرياً، بل هو منتج لأنّ العلامات/ الرموز تختلف فيما



بينها، واستخدام الاستعارة، التي تعني استبدال دال بأخر، يُعدُّ فعلاً رمزياً (باركر، ٢٠١٨م، ٢١٠). وقد حتمت الكثافة الرمزية مد تلك الخطوط والشبكات وإيصال بعضها ببعض؛ لأنَّ بناء الرواية ومعمارها غير نمطيين ومرمزين وملغزين، وهو الأمر الذي يدفع الناقد - ضرورة - إلى أن "يبحث عن آليات جديدة ومجسات نقدية قادرة على سبر غور هذه البنى الروائية المعقدة وبالتالي [كذا] (فك) شفراتها" (ثامر، ٢٠٢١م، ١٨).

ولا بد من الإشارة إلى أن استعمال الرمز في الرواية لم يكن ترفاً سردياً، أو لعباً فنياً، وإنما كان حاجة ملحة وفرتها ضغوطات الزهن، التي من الصعب أن يُعبّر عنا بصورة مباشرة، وبلغة مبسطة ونمطية، فكان الأخلق أن يُعبّر عن تلك الحاجة باللغة الرمزية؛ لأنَّ "دور النظام الرمزي بالغ في تشكيل ما نحيل عليه ب (ذواتنا) بكوننا، في الواقع، لسنا أفراداً مستقلين ووحيديين مثل ما نظن. إن رغباتنا ومعتقداتنا وانحيازاتنا، إلى غير ذلك مشيدة لنا كنتيجة [كذا] لانغماسنا في النظام الرمزي، خصوصاً وإن هذا الانغماس يقوم به آباؤنا وتؤثر في استجاباتهم للنظام الرمزي" (تايسن، ٢٠٢١م، ٤٦). وانطلاقاً من ذلك، سعت الرواية إلى إعادة قراءة التاريخ الحديث من خلال الرمز المكثف، وعلى وفق إيديولوجيا المقموع الذي يعي ذاته بعد أن تكالبت عليه قوى الاستعمار سنين طويلة، ويؤمن بأن ثمة أملاً في التغيير، لأنَّ خلق الرمز وإداركه يتجلى برأي (كولريديج) بأنه "ضرب من الفعل الإيماني. ويُراد منه إثارة استجابة الشخص كلاً، في الإيمان، والأمل، والحب. فهو تسليم إنسان ذاته إلى ذات غيره" (بارث، اليسوعي، ١٩٩٢م، ٢٥).

في الرواية رموزٌ كثيرة، كان موضوعها - في الأغلب - الحيوان، وهناك رموز أخرى تتعلّق بموجودات لها علاقة بالحيوان في ضوء منطق الرواية، وتتوفّر مجموعة من الرموز الرئيسية، والثانوية بحسب دور الشخصية في الرواية، وكذلك توفّرت بعض الرموز ذات الدلالة البسيطة أو السطحية، فضلاً عن استعمال الحيوان - في بعض الأحيان - على سبيل التشبيه أو تأكيد فكرة أو توضيحها، أو الانتقاص من شيء أو مدحه، كما هي الحال في أي عمل أدبي آخر. غير أن الرمز في هذه الرواية قد اضطلع بوظائف مهمة، كان من أهمّها: "وظيفة الكشف، أي بيان ما يشكّل أزمة على المستوى الشخصي أو على المستوى العام، وما يحاول منتج النص التعبير عنه يمثل سؤاله الملح أو إجابته عن سؤال سابق تخلقه الضرورة التاريخية في لحظة وعيها" (عاتي، ٢٠١٥م، ٥٣). ولعل أهم الرموز التي تضمنتها الرواية، التي سندرجها بالجدولين الترميزيين في أدناه، والتي سنفيد من مجموعة منها في هذا البحث:



الجدول الترميزي الأول (رموز مادّتها الحيوان)

ت ت	الرمز	دلالة الرمز
١	أرض الصقور	الأرض العربيّة في زمن قوتها وازدهارها
٢	أرض النسور	أوربّا
٣	أسد	الدين أو المعبود
٤	الأفاعي	الجواسيس
٥	أفاق (النسر)	الاستكشافات الجغرافيّة، ويمكن أن يكون بصورة أدقّ المستكشف (كرستوفر كولمبس)
٦	الأفعوان	السلطة العميلة للغرب
٧	الأفيال	الدبابات أو المدرعات، وما شابه ذلك من الأسلحة الثقيلة
٨	أنثى الباز (بازا ناري) أو (ناسا)	(آن بولين) ملكة إنكلترا وزوجة الملك (هنري الثامن) الثانية
٩	أنثى الغراب أو ابنة الغراب	الحركة الصهيونيّة
١٠	الباز (البوازي)	الألمان
١١	الباز الكاسر	ألمانيا الاستعماريّة أو النازيّة، أو بخصوصيّة أكثر القائد الألماني (هتلر)
١٢	الباز الماهر	القائد الألماني (رومل)
١٣	البيغاوات، والعنادل، والكروانات، والنسانيس	المغنون، والممثلون، والراقصون، وأشبه ذلك
١٤	البواشق	المماليك
١٥	البومة	الاقتصاد الإمبريالي الرأسمالي



٦	التيس العنيد (الوعل)	ملك قبائل (أمريكا) قبل استكشافها واحتلالها من الأوربيين
٧	الثعابين	العملاء والجواسيس
٨	الثور (الثيران)	إسبانيا
٩	جرجي (النسر)	أمريكا أثناء الاستقرار النسبي بعد الحرب الأهلية
١٠	الجمال	الأخلاق والفضيلة والمبادئ
١١	جهاز أمن الدب	الاستخبارات الروسية الـ (KGB)
١٢	حزب الحمار	الحزب الديمقراطي الأمريكي
١٣	حزب الفيل	الحزب الجمهوري الأمريكي
١٤	الحيوان	الإنسان
١٥	الحيوانات الجديدة في دولة الجبل	المهاجرون الجدد إلى أمريكا في أول استكشافها
١٦	حيوانات دول فانية	كائنات فضائية
١٧	الخفاش الضخم	وكالة الـ (CNN) الإخبارية الأمريكية
١٨	الخفاش الضئيل	الألماني (جوزيف جوبلز) اسطورة الحرب النفسية والدعائية.
١٩	الخفافيش	الاعلام الاستعماري أو غير المحايد أو المضلل.
٢٠	الخلد (الخلدة)	العرب في الوقت الحاضر
٢١	الدب الطائر	الاتحاد السوفييتي السابق في أوج صعوده
٢٢	الدببة الصغيرة	بولندا
٢٣	الدجاجة الشبقة	جوزفين زوجة نابليون بونابرت
٢٤	الديكة	فرنسا



٥	الديك	نابليون بونابرت
٦	الذئب	إيطاليا
٧	الذئب التافه	الرئيس الإيطالي (بينتو موسوليني)
٨	رائد (النسر)	أوربًا في عصر النهضة
٩	الريش	أدوات المعرفة
١٠	سحر عش الغراب	القنبلة الذرية
١١	السلحفاة	حياة المجون والدعارة في أوربًا
١٢	السلم الحار، أو الحرب المؤدبة	الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي السابق وأمريكا
١٣	الصقر	العرب في وقت قوتهم الحضارية
١٤	طيور الزينة أو عصافير الأزاليا البريئة	اليابانيون
١٥	الظليم نعمان	المقاوم العربي الذي يضعف أمام إغراءات الغرب
١٦	العقبان	العثمانيون
١٧	عملة نسور الغابة الفحمية	الجنيه الأسترليني
١٨	عين العقل (الوعل)	مقاومة سكان أمريكا الأصليين للأوروبيين
١٩	الغراب	اليهودية الانتهازية أو الصهيونية العالمية
٢٠	الفأر	الحيل السياسية
٢١	القرود العجوز	رئيس روسيا بعد تفكك الاتحاد السوفيتي السابق (بوريس يلتسين)
٢٢	كبير النسور	انكلترا
٢٣	ملك النسور	بريطانيا (الاتحاد البريطاني الذي تشكل عام ١٧٠٧م)



٤	ناطق الصخر (الوعل)	الحوار مع المستعمر، أو المستعمر الذي يحتال عليه المستعمر
٥	النسر الأصلع	أمريكا في الوقت الحاضر
٦	النسر المتهالك أو النسر العجوز	بريطانيا بعد تراجع تأثيرها في العالم وصعود أمريكا بدلاً منها
٧	النسور	الأوروبيون
٨	النعام	العرب في بداية العصر الحديث
٩	الهداهد	الإعلام النزيه، أو المقاوم، أو الوطني، أو الموضوعي
١٠	الوطاويط (نوع من الخفافيش)	الجواسيس
١١	الوعول	سكان أمريكا الأصليين قبل أن تُكتشف من الأوروبيين

الجدول الترميزي الثاني (رموز مادتها موجودات أخرى)

تت	الرمز	دلالة الرمز
١	اتحاد الكمائين	منظمة (أوبك) النفطية
٢	تصدير حلم الجبل	العولمة أو النظام العالمي الجديد
٣	حلف العسل	الحلف السوفييتي
٤	الحيل التافهة	الأسلحة العربية الفاسدة المستعملة في الحرب مع الصهاينة
٥	سبر أغوار المحيط	غزو الفضاء أو حرب النجوم
٦	السحر الأسود أو الجهنمي أو القاتل	الأسلحة غير التقليدية (البيولوجية والكيميائية) وما شابه ذلك
٧	السحر القديم	الأسلحة التقليدية



٨	سحر قراءة الأفكار	التحليل السياسي والإخباري
٩	سراب (الساحرة)	العلم في جانبه السلبي والمدمّر
١٠	شجرة الأسي	عملة الدولار
١١	الغابة	العالم
١٢	الكمء	النفط
١٣	لباب (الساحرة)	العلم في جانبه الإيجابي
١٤	المنظمة الغابيّة	منظمة الأمم المتحدة
١٥	نظريّة الرؤى	النظريّة الاشتراكيّة
١٦	نظرية المقامرة	النظريّة الرأسمالية
١٧	وكالة سام	وكالة ناسا الفضائيّة

ولابدّ من الاعتراف بأنّ محتوى (خدولوجيا) يستقرّ الذات، بشكل ربّما يكون غير مسبوق في رواية أخرى، أو في الأقلّ الروايات المعاصرة التي وظّفت الحيوان^(*)، وذلك باستحضار صور ضعفها ومآسيها وجراحاتها، ولكن - في هذه الرواية وغيرها - يظنّ المسعى من استحضار الجراح ليس إطرأ الذات وتقريع الآخر، وإنّما استلهاهم العبر المناسبة بغية إدامة السلم والمحبة والتفاهم بين الناس، وحفزهم على نبذ العنف والشدّة والكرهية^(الداهي، ٢٠١٣م، ٣٣٠). كما أنّ الرواية يمكن أن توصف بأنّها تاريخيّة حينما تُرجع أحداثها إلى وقائع تاريخيّة حقيقيّة سُردت عن طريق الرمز، وهنا يلتقي المؤرخ بالروائي في مهمة قد تكون واحدة، إذ "يتعامل المؤرخ والروائي مع المتحوّل قاصدين (عبرة) تتأمل طبيعة إنسانيّة، تعايش اندثاراً لا نهاية له"^(درّاج، ٢٠٠٤م، ٩). غير أنّ ما يهم في مثل هذا النوع من الروايات ليس إعادة سرد الأحداث التاريخيّة الكبيرة، بل الإيقاظ

* صدرت في المدة الأخيرة روايات عربيّة وظّفت الحيوان بكثافة، على سبيل المثال لا الحصر: زمن الضباع (٢٠١١م)، لأشرف عشاوي، ومذكرات كلب عراقي (٢٠١٢م)، لعبد الهادي سعدون، وإنسانزم (٢٠١٧م) لسعد سعيد، والقرود الليبرالي (٢٠١٧م)، لسفيان رجب، ورحلة باستنيت الأخيرة له (٢٠١٨م)، لحامد عبد الصمد.



الشعري للناس الذين برزوا في تلك الأحداث، وما يهم هو أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت بهم إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا تماماً في الواقع التاريخي" (لوكاش، ١٩٨٦م، ٤٦). أي لم يكن التاريخ في هذه الرواية - على أهميته - قالباً نمطياً جامداً ضمَّ أحداثها، بل كان بنية أساسية في اسباغ مضمون الرواية الرمزي والمتخيل، عن طريق إحداث تاريخ مواز للتاريخ الحقيقي، للحاجة الماسة لهذا الأخير في الحاضر، إذ "إن إعادة بناء للماضي تكيف صورة الواقع القديمة مع المعتقدات والحاجات الروحية للزمن الراهن" (العرباوي، ٢٠١٤م، ١٥٠).

سنعتمد في تقصي الرمز الذي حفلت به الرواية على القراءة الإيديولوجية؛ لأنّ "الأدب هو تجسيد للصراعات الدائرة باستمرار بين إيديولوجيات متشكلة ضمن البنية الثقافية - الاجتماعية؛ وهو في ذلك تجسيد للصراعات على مستويات أخرى ضمن البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية واللغوية" (أبو ديب، ١٩٨٥م، ٥٧). إن هذه القراءة تربط الرمز الروائي بالقضايا الإيديولوجية، أو التي تتصل بالإيديولوجيا، وهي كثيرة جداً؛ لأنّ الرواية - كما يلخص حميداني - نسق من العلاقات يتأسس بالتناقضات، التي تُخلق عن طريق الأفكار الإيديولوجية الجاهزة في الواقع، إذ تدخل كلّ إيديولوجيا إلى الرواية متساوية مع غيرها، وكأنتما تُختبر صلابتها مواجهة الأسئلة التي توجه إليها من الطرف الآخر وفي هذه الحالة تكون الرواية ذات (ديالوجي)، أو تُخضع بعضها لبعض بوسائل فنية تُلهي القارئ عن معرفة ما يجري من تواطؤ ضد ملكاته الإدراكية وفي هذه الحالة تكون الرواية ذات طابع (منولوجي) ومظهر (ديالوجي)، بيد أن إعلان التناقض الصريح في الرواية بين آراء الكاتب والإيديولوجيات المغايرة، يجعل الرؤية فيها تصبح ذات طابع (منولوجي) واضح، وتتراوح الرواية في الحالات الثلاث بين ادماج الإيديولوجيا بوصفها موقفاً معبراً عن مصالح خاصة والإيديولوجيا بوصفها بحثاً معرفياً في الإيديولوجيات، ولكن عن طريق الإبداع، ولا تعكس الرواية إيديولوجيات الواقع في الإبداع فحسب، بل تتدرج في الحقل الإيديولوجي بوصفها مغامرة فكرية في خضم الصراع الإنساني، إذ تقوم بتوظيف الإيديولوجيات وتقتحم الصراع الإيديولوجي أو البحث المعرفي، وعلاوة على ذلك إنها تختلف عن الإيديولوجيا؛ لأنها نص إبداعي يتسم بقوة التأثير (ينظر: حميداني، ١٩٩٠م، ٤٢-٤٣). وعلى أساس ذلك ستركز هذه القراءة على موضوعات بعينها أهمها: علاقة الذات بالآخر، وحالة الانقسام الشديد بينهما، وسعي الآخر إلى تحجيم الذات وقهرها. ولا يمكن - ضرورة - أن تكتمل القراءة الإيديولوجية بغياب موضوع الاستعمار في الرواية، سواء أكانت الرواية استعمارية، أو ما بعد استعمارية، أو مضادة ومصادرة؛ ولذلك سيكون الاستعمار حاضراً في مقابل الرواية المضادة أو السرد



المقاوم. ومن منحى آخر ستهتم القراءة بصراع الطبقات، سواء أكان هذا الصراع في الغرب أم في الشرق/البلاد العربية. ولا بدّ من نقد العقل الغربي والشرقي على حدٍ سواء؛ لأثره الكبير في تعميق أسس الخلاف بين الأطراف، وإشاعة المأساة في حياة الإنسان. وثمة بنية تفاؤلية تتوسط هذا الكَلّ المتلاطم من الصراعات والإخفاقات والانتكاسات والخيبات العربية، سينوّه عليها البحث في أماكن متفرّقة من منته، وذلك كلّه سيكون بالانطلاق من الرمز.

ومع أنّ الرواية مدار البحث قد تضمّنت رموزاً كثيرة عن طريق توظيف الحيوان، إلّا إنّ البحث سيركز في هذا المقام على الرموز المتعلقة بالصراع العربي مع الغرب الذي تمثّله أمريكا، والصراع مع الصهيونية العالمية، إذ سيجلو البحث توظيف الحيوان الذي يرمز إلى العرب، وأمريكا، والصهيونية، ويُمهّد لذلك باستقصاء الرمز الدال على أوربا في عصر النهضة، والرمز الدال على الاستكشافات الجغرافية الأوربية وتوابعهما، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الأخير كانت مؤثراً تأسيسياً في أحداث العصر الحديث. وارتأيت أنّ أقسم من البحث - من منحى التأويل - إلى قسمين: ما قبل اثبات النص الروائي وما بعده، سيخصص الأول للنص الرمزي مع إشارة مقتضبة لدلالاته الحقيقية فقط، فيما سيتكفل ما بعد النص الروائي لتأويل الرمز ودلالاته الإيديولوجية، كما سيتبين في الفقرات الآتية:

أولاً/ الرمز الدال على بداية عصر النهضة الأوربية وما يتعلّق به.

إنّ زمن الرواية زمن نمطي يسير من الأقدم إلى الأحدث، وإنّ كانت أغلب أحداثه يسردها (الأفعوان) عن طريق (الاسترجاع)، بوصفه راوياً عليمًا ومشاركاً في الأحداث، ويبدو أنّ موضوع الرواية كان الدافع الرئيس، لتبني مثل هذا الأسلوب الزمني في السرد، فقد تحكّمت السيرورة التاريخية بأحداث الرواية تحكماً كبيراً، واعتمدت على مفهومي: الأسباب والنتائج؛ ولذلك سيظهر الرمز في الرواية بحسب قدم الشخصية الروائية زمنياً. ومن هذا التفسير يبرز الرمز الدال على عصر النهضة الأوربية، وما له علاقة به أولاً، أعني: النسر (رائد) الذي يرمز إلى أوربا في بداية عصر النهضة، وهو العصر الذي أفادت فيه أوربا من العلوم العربية، واستعملتها في نهضتها الحضارية. وقد تعلم (رائد) تسلّق الأشجار أولاً، ويرمز (التسلّق) إلى أولى خطوات المعرفة، بعد أن كان لا يعرف سوى المشي، على يد (الصقر) الذي يرمز إلى العربي في أوج رقيّه الحضاري والعلمي، عندما وصل إلى (أرض النسر) التي ترمز إلى أوربا، كما يبيّن ذلك الحوار الذي دار بين (الصقر) والنسر (رائد):

- أريد منك يا معلّمي أنّ تعلّمني كيف أتسلّق الأشجار (...).



- لقد كبرت إذاً، وتريد أن تتسلق الأشجار.
- نعم يا أستاذي الكريم، فهل تعلمني؟ (...).
- في الحقيقة، أنا أرى إمارات طموح كبير في وجهك، والطموح حينما يجمع يقترب من حدود الطمع (سعيد، ٢٠١٥م، ٣٨).

يبين هذا الحوار أثر العرب في وضع أوربا على عتبة التطور، عن طريق تعليم الأوربيين مبادئ العلوم، وأوليات المعرفة، التي بها تبدأ الأمم الخطوات الأولى للتطور والتحصن، بيد أن قلق المعلم العربي يبقى مطروحاً في مسألة الاستفادة من هذا العلم، أي هل سيكون العلم في خدمة البشرية أم سيكون سبباً في زوالها؛ بسبب امتزاج الرغبة في العلم بالطموح الكبير، والطمع في السيطرة على الآخر. ويتضمن الحوار إيديولوجيا تكاملية بين الذات والآخر، بالإشارة إلى المثاقفة بينهما، وإفادة الآخر من علوم الذات، ورغبة الذات في تعليم الآخر، بيد أن هذه الإيديولوجيا التكاملية ستحوّل فيما بعد - بفعل طمع الآخر وطموحه - إلى إيديولوجيا متضادة، أو إيديولوجية احتواء ومصادرة، تسبب صدمات دامية بين الطرفين في أوقات مختلفة من هذا العصر، يعتدي فيها الآخر على الذات ويقهرها.

لقد تحكّم الطموح الجارف والرغبة في التعلّم والتطور في النسر (رائد) بصورة لم تكن مسبوقة، إذ لم يكتف بعلم تسلق الأشجار الذي تلقاه من أستاذه (الصقر)، بل سعى إلى أكثر من ذلك عن طريق اكتساب معارف أخرى كثيرة على يد الساحرة (لباب) التي ترمز إلى العلم بجانبه النظري والتطبيقي، وفعلاً كسبه هذه الساحرة الريش الذي يرمز إلى أدوات المعرفة، إذ تمكّن بمساعدته تعلم (سحر الطيران) العظيم الذي يرمز إلى العلم الحديث، والذي استندت إليه أوربا في نهضتها:

- ولكن خذْ حذرك فلهذا السحر قوى عظيمة يمكن أن تنزل أعظم الأذى بك وبالأخرين لو لم تحسن استخدامها، فإياك والشر (...).
- هيا طر وعدْ إلى قومك لتعلمهم الطيران.
- ثم طارت مبتعدة عنه، وكانت آخر الكلمات التي وجهتها له وهي طائرة:
- تذكر أن تلتزم ناصية الخير وإلا ستندم (سعيد، ٢٠١٥م، ٤١).



إنّ العلم الحديث كان عند الأوربيّ سلاحاً ذا حدّين، إذ كان يمكن به أن يبني العالم والإنسان، وبه يستطيع أيضاً أن يدمرها تدميراً. ويبدو أنّ الأوربيّ لم يتلقّ العلم الحديث تدريجياً، بل حرق مراحل تلقّيه، واختزل الزمن للوصول إلى ما يمكن أن يكون هو الغاية النهائية فيه، ولم يجعل العلم ينمو في ذاته نمواً طبيعياً، وهذا الأمر ولّد صدمة كبيرة في الذات الأوربيّة، جعلته مغروراً بعلمه الذي أصبح بديلاً من المعتقد والناموس.

وكان (الصقر) متوجّساً وقلقاً من طموح النسر (رائد) الجامح، بعد أن تعلّم (الطيران) الذي يمكن أن يدفعه إلى استغلال (الحيوانات الأخرى) التي ترمز إلى الشعوب غير الأوربيّة، ويدفعه كذلك إلى تخريب (الغابة) التي ترمز إلى العالم، وهو الأمر الذي توقّعه (الصقر)، وحدث بتمامه فيما بعد، كما يروي الراوي:

- يا رائد، أنتم نسور قوية وعددكم كبير وفوق هذا امتلكتم المقدرة على الطيران، فما الذي يضمن أنكم لن تستخدموا قواكم في الظلم والعدوان؟

- لم يحر رائد جواباً بل بقي صامتاً، فقال الصقر:

- أرايت؟! أنت حتّى لا تستطيع أن تؤكّد لي أنك لن تفعلوا.. على كلّ حال أنا عائد الآن إلى ديارى، ولكن تنكّر فوق كلّ قادر قدير (سعيد، ٢٠١٥م، ٤٤-٤٥).

إنّ هذا الحوار بين الذات والآخر، يتضمّن (استباق) الأحداث، واعتراف الذات بقدره الآخر على امتلاك مكانم القوة، ويتضمّن رؤية إيديولوجيّة واضحة فيما ستؤول إليه الأمور بين الطرفين، ويؤكّد كذلك بداية انتهاء الحوار بينهما، وبدء مراحل: الافتراق والرحيل والصدام، وهو ما حدث فعلاً بحسب سيرورة الأحداث بين الغرب والشرق، إذ حلّ الصدام الحضاري محلّ الحوار، منذ ذلك الوقت المفصلي حتّى الآن.

وثمّة صراع لاحت ملامحه في عصر النهضة، دار بين الساحرة (الباب) والساحرة (سراب) التي ترمز إلى الوجه القبيح من العلم، أي العلم الذي يغدّي نوازع الشر في نفس الإنسان، ويُسّعمل في تدمير العالم. لقد ساء (الباب) أن تنظر بعينها إلى استعمال (سحرها) في غير ما كانت ترنو إليه، فبدلاً من أن يستعمله (الحيوان) في الخير صار يستعمله في الشر الذي يدمر (الغابة): "كان هدفها أن تشلّ حركتهم لكي تحرمهم من السحر الذي وهبتهم إياه منذ زمن طويل، وكلّ ظنّها أنّها تستطيع ذلك



لأنها هي جنبية السحر الأصلية، ولكنها كانت لا تعرف مدى القوة التي اكتسبها سحرهم الأسود الذي كان يستمد قوته الحقيقية من الشرور التي تسكن نفوس الحيوانات وتضيف أنانيتها إليه قوة مضاعفة لأنها تشعر بأنها إنما تعمل من أجل مصالحها الشخصية وهو ما لم يكن سحر لباب الحقيقي يهدف إليه لأنه كان لخير الحيوانات جميعاً (سعيد، ٢٠١٥م، ١٥٧-١٥٨). لا شك في أن الأوربي قد أراد الإفادة من العلم إلى أقصى غاية، واستعماله لأغراضه الذاتية، بيد أن هنالك جانباً فضيلاً في العلم يعتمده الإنسان في إشاعة الخير والنماء، وآخر مدمر يمكن أن يكون أداة في القمع والقهر وإيذاء الآخرين، وهذا الأخير كان غاية الأوربي، بعد أن دارت عجلة الصناعة في عصر النهضة وما بعده، فقد استعمل الأوربي العلم في تدعيم المراكز الأوربية، وبناء الإمبراطوريات الاستعمارية، التي اجتاحت البلدان غير الأوربية، واستغلت ثرواتها، وحاولت محو ثقافتها وهويتها، ومنذ ذلك الحين بدأ الجانب الشرير من العلم هو السائد، وبه استغل الإنسان، وبه فُتِل، وبه صُنعت الأسلحة المتطورة ذات الدمار الشامل التي أسهمت وستسهم في تحطيم العالم.

وبينما كانت الساحرة (لباب) تركز على الجانب الحسن في نفس (الحيوان) وتكافح الجانب القبيح والشرير فيه، وتستنهض في (الحيوان): المبادئ، والقيم، وخصال التحضر، والرقى، كانت الساحرة (سراب) تؤدي عكس هذا العمل تماماً. وقد كانت المعركة بين الساحرة (لباب) والساحرة (سراب) غير متكافئة وغير متوازنة، لأن الأولى كانت لا تعرف بوجود الثانية (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ١٥٨)، بينما كانت الثانية تعمل في الظلام والخفاء لتحطيم الأولى، وتخبّر (سراب) عن نفسها، فتقول: "كانت لباب تركز على جانب الخير من النفس الحيوانية، ولكنها لم تعرف أن الوعي الذي يتسرب إلى داخل تلك النفس إنما يتوغل في كلا الجانبين اللذين تتكوّن منهما وهما الخير والشر، وحينما وعى رائد ذلك الدرس ولدت أنا في الجانب الوحشي من نفسه والذي كان لحظي قوياً جداً لا يستطيع الجانب الآخر السيطرة عليه" (سعيد، ٢٠١٥م، ١٦٢). إن الجانب الشرير من العلم ما هو إلا صورة من صور غرور الإنسان الأوربي الحديث، أو بتعبير أدق: تمثيل لنفسه العابثة القاسية والوحشية، إذ ظهرت آثار ذلك وملامحه في عقل الإنسان الأوربي منذ بداية عصر النهضة، وصولاً إلى العصر الحديث، وهو ما يشكّل نقداً للعقل الأوربي الذي جرّ الكون إلى المأساة، التي كانت لها بداية ولم تنته إلى الآن، إذ أكد ذلك الواقع المأساوي في العالم، بعد أن تقهقر فيه العلم الفضيل، وبرز العلم الذي استعمل في الحروب، وإخضاع الإنسان، وسلبه حقه في العيش المطمئن، وصار بسببه مجرداً من كل شيء.



كانت الساحرة (سراب) تنتهج استراتيجية طويلة الأمد، تعتمد على إيديولوجية ثابتة، تهدف إلى إحكام سيطرتها على (الباب)، ومن ثمّ على (الغابة)، فقد كانت (سراب) مهووسة بفكرة السيطرة والتسلط: "منذ ولادتي بدأت أحبط محاولات لباب لاستعادة ما وهبته، كانت هي في ذلك الوقت أقوى مني بكثير، ولكن موقعي في أعماق الحيوانات كان يعينني على النجاح فيما كنت أصبو إليه (...). ولكني كنت أزداد قوة بمرور الوقت ومع تزايد الحروب والمعارك التي كنت أنجح في حيك تفاصيلها، وما يتبع ذلك من رغبة متزايدة في الانتقام وغلبة مشاعر الحقد على مشاعر الحب والتسامح" (سعيد، ٢٠١٥م، ١٦٢-١٦٣). هنا نقدّ لاذع موجّه إلى العقل الأوربيّ المغرور الذي افتعل الحروب، والذي سوّغ ارتباط السلطة بالمعرفة بعلاقة تكاملية صارت واضحة للعيان بالممارسات التي تؤكّد ذلك، إذ إنّ السلطة كما لاحظ (هابرماس) "تستخدم المعرفة لأهداف نفعية لها صلة بديمومة السلطة وتوسيع هيمنتها على الأفراد" (إبراهيم، ٢٠١٩م، ٥٦٥). فالعقل الأوربيّ لا يقبل أن يستعيد العلم دوره الفضيل؛ لترجيحه المصالح الذاتية والأنية على المبادئ والقيم الإنسانية الدائمة التي تتضاد مع مخرجات العقل الأوربيّ.

صُعّب على (الباب) مقاومة هذا الضغط الذي اشتركت فيه (حيوانات الغابة) كلّها مع (سراب)، وبدأ الحزن يقضمها، حينما رأّت أنّ (سحرها) الذي كانت غايته الخير، يتحوّل إلى أداة قامعة بيد الأشرار، وفي هذا الوقت، وتحديداً في وقت انهيار (الباب)، كشفت (سراب) عن وجهها القبيح، وبدأت تعمل (سحرها) في وضوح النهار، بعد أن كانت تعمل في السابق وهي متوارية في الظلام، بل إنّها طمحت إلى أكثر من ذلك، عندما أرادت أن تلغي الأديان والمعتقدات كلّها، وتكون هي معبودة (الحيوان) الأولى، كما تعترف بذلك بقولها: "منذ اليوم سأكون أنا الإلهة التي يجب أن تعبدون، لا أسد أو غيره من الخرافات، بل إياك أن تورّد ذكر أسد على لسانك بعد اليوم، فهو رغم كونه خرافة إلاّ أنّه رمز للخير، فأياك والخير لأنّه لا يليق بعباد سراب الضالّين" (سعيد، ٢٠١٥م، ١٦٣). ولم يكن وجه (سراب) القبيح إلاّ صورة مرآتية للشر الكامن في الإنسان الأوربيّ؛ لتقديسه العلم والعقل بإفراط، من غير أية اعتبارات للروح، والعاطفة، والمعتقد، إذ وقرّ مفهوم تقديس العلم في فكر الأوربيّ حالات: ازدياد الأديان والمعتقدات، وإغفال الروح، والانهمام بالمادّة بصورة قد تكون مرضية.

ثانياً/ الرمز الدال على الاستكشافات الجغرافية الأوربية

يرمز النسر (أفاق) إلى حركة الاستكشافات الجغرافية الأوربية، التي مهّدت للحركة الاستعمارية الحديثة، عن طريق استكشاف أمكنة ذات سلطات رخوة تتمتع بثروات كبيرة، كانت تحتاجها أوربياً بعد دوران عجلة الصناعة فيها، فضلاً عن الطموحات



الأوربية في السيطرة على العالم. إنَّ (النسر) يرمز إلى الأوربي الذي يسعى إلى مخر عباب البحار، وقطع المناكب للوصول إلى أمكنة جديدة تستغلها أوربًا. وبتحديد أكثر يمكن أن يرمز (أفاق) إلى (كرستوفر كولمبوس) مكتشف أمريكا. ويصف لنا (الأفعوان) هذه الشخصية من المنحى الداخلي والإيديولوجي، التي تمتلئ برغبة الاستكشاف، وتتسلح بـ (سحر الطيران) بصورة دقيقة: "كان النسر (أفاق) أفاقاً بحق، كان لا يستطيع أن يبقى في مكان واحد لفترة طويلة لأنه سرعان ما يمل، فيحنّ لحياة الترحال والمغامرة مرة أخرى" (سعيد، ٢٠١٥، ٥٤). يشير النص إلى النوازع النفسية المتأثرة بالضغوط الإيديولوجي الذي يؤطر شخصية المكتشف الأوربي، بوصفه إنساناً توفّرت في يده الإمكانيات التي يستطيع بها إتمام مهمته، فهو لا يستقر في مكان واحد، بل يشرع بالرحلات التي تنتهي باستكشاف أراض جديدة، يحيط بوجودها علماً أصحاب القرار في أوربًا، أعني: القوى الحاكمة والكنيسة، وهو بذلك يتبنى مهمة محددة ذات أسس إيديولوجية واضحة. إنَّ المكتشف الأوربي يبحث عن أمكنة يعتقد أنها مجهولة وغير مستكشفة، بعد أن رسم الأوربيون قبل البدء بعملية الاستكشاف "خرائط قارية وعالمية تضم بالضرورة امتدادات كبيرة في الفضاء الخالي، وبذلك يبنون تلك البلدان بوصفها بلداناً مجهولة، تنتظر الاكتشاف والاستيلاء النهائي" (شك، ٢٠٠٣م، ١١٧). وهذا يعني إعادة تشكيل العالم وأجزائه على وفق الرؤية الأوربية، التي تسعى إلى "تحويل تلك الأجزاء إلى مواضع ممكنة للاهتمام السياسي والاقتصادي الغربي" (شك، ٢٠٠٣م، ١١٧). أي تسوّغ الاستعمار الأوربي الحديث، أو هي - الخرائط- إجازة أو رخصة للبدء بالحركة الاستعمارية الحديثة.

وغالبا ما كانت محاولات (أفاق) الاستكشافية تنتهي بالنجاح؛ لأنه الوحيد الذي يمتلك القدرة على (التيران) في الوقت الذي كانت فيه (حيوانات الغابة وطيورها) ملتصقة بالأرض تمشي وترحف. وقد استغل (أفاق) هذه المقدرة، التي كان (الصقر) صاحب الفضل الأول في وجودها فيه، فبدأ يستعمل (سحر الطيران) في عمليات الاستكشاف، والسيطرة على (الغابة): "وفي ذات يوم طار أفاق فوق أشجار الغابة وحلّق عالياً في السماء حتّى وصل إلى علو لم يكن قد وصله طير من قبل، فرأى من هناك الظل الأسود العملاق، للجدار الكائن إلى الغرب من الجزيرة، التي تناطح قمة السحاب.. كان ذلك الجدار نهاية الجزيرة كما يُعتقد.. فكّر في الذهاب إليه، واستكشاف ما وراءه" (سعيد، ٢٠١٥، ٥٤). إنَّ فكرة الاستكشافات على وفق هذا التصوّر المعتمد على الفعل الجغرافي الذي ينهل من الخيال والتخيّل ويستند إليهما هي فكرة أوربية تحتل الكذب والتمويه والإيهام؛ "لأنّ ما زعم المكتشفون أنهم اكتشفوه كان بالفعل معروفاً بشكل ثابت لشعوب المواطنين الأصليين المحليين" (أشكروفت، وجريفث،



وتيفن ٢٠١٠م، ١٧١). وقد كانت لذة الاستكشاف ودوافعه الإيديولوجية المحركين الرئيسيين اللذين يوجّهان أفعال الأوربي في ذلك الوقت، أي لم يكن الاستكشاف حالة عابرة، بل مرحلة مفصلية أثّرت في خارطة العالم وإعادة بناء الهويات، إذ "إنّ فعل الاكتشاف، أعلن عن ولادة الغرب الحديث، وأسس هويته الجديدة" (إبراهيم، ٢٠١٩م، ٣٨٩)؛ ولذلك كان الأوربي لا يحفل بأي شيء يمكن أن يمنعه من ارتشاف هذه اللذة، التي تشي بطموح كبير في إحداث أثر جديد ومختلف في العالم.

إنّ امكانات (أفاق) ورغبته في الاستكشاف قاداه إلى اكتشاف (أرض الوعل) التي ترمز إلى أمريكا قبل وصول الأوربيين إليها، وعُدّت أول مستكشفات (أفاق) الحديثة المغربية، التي غيّر اسمها (أفاق) ومن بعده (النسور) فيما بعد من (أرض الوعل) إلى (دولة الجبل) (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ٨٩)، وكان هذا الموقف الذي جمع بينه وبين الوعل (ناطح الصخر) أول حالة تلاقٍ بين المكتشف والمكتشف:

- من أين أتيت أيها الوعل الذي يطير!؟

- فقال أفاق بدهشة:

- ماذا؟! وعل، ويطير، ما هو الوعل!؟

- الوعل، لا تعرف ما هو الوعل وأنت في أرض الوعل!؟ ولكن، إذا لم تكن أنت وعلًا، فما أنت؟

- أنا نسر، واسمي أفاق!

- ومن أين أتيت يا أفاق!؟

- من تحت، من الغابة (سعيد، ٢٠١٥م، ٥٦).

يشير النص الحوارى المرمز إلى اللقاء بين المستكشف الأوربي والأميركيين الأصليين (Americans Native)، أو الهنود الأمريكيين (Americans Indians)، أو الهنود الحمر (Red Indians). وقد كان أثر اللغة كبيراً في تدويت هذا المستكشف الجديد، ومسح هويته الأولى وهذا الأمر كان له مثيل في واقع الأحداث، بعد أن "ارتهنت أوربياً كقوة [كذا] طالعة بلذة الاكتشاف، ووصف (العالم الجديد) بأنه (أمريكا). ومنذ أن وطأت قدم الأميرال الإسباني أمريكو فيسبوتشي هذه الأرض، أعلنت نسبتها إليه، ألغى وجودها وتاريخها الذاتي، وأعلنت ملكيتها ب (التسمية)، وأصبحت علاقة هذه الأرض، بكل ما فيها، أشبه بعلاقة



النوع بالجنس في الفلسفة القديمة. فمنذ (الاكتشاف) لا تُعرف هذه الأرض إلا بعلم معرّف بذاته" (إبراهيم، ٢٠١٩م، ١٠-١١).
ويبدو أنّ هذا التصوّر الاستحوادي "يتعلق بالعملية السياسيّة المرتبطة باللغة، أي ممارسة الهيمنة الأوربيّة من خلال
(الكلمة)" (أشكروفت، وغريفث، وتيفن، ٢٠٠٦م، ٢٢٩)، إذ أفرز هذا الأمر حالة من الازدواج النفسي والسلوكي، باشرت
المستكشّف الأوربيّ الأول، فهو يرغب بالمستكشّف وفي الوقت نفسه يمقته ويحتقره، أي كان "مجمل تاريخ اكتشاف أمريكا، أول
أحداث الفتح، يتميّز بهذا الالتباس: إنّ الأخرية البشريّة تُكتشّف وتُرفض في آن واحد" (تودوروف، ١٩٩٢م، ٥٦).

ولم يكن فعل الاستكشاف - على الرغم من أهميته - غاية (أفاق) الكبرى، وإنّما كان محض وسيلة لغاية أكبر، فقد كانت
طموحات ما بعد الاستكشاف ومشاريعه هي الغاية الرئيسيّة والهدف المنشود من ذلك الجهد الجغرافي الذي كان مضنياً وخطراً
واستثنائياً ومنطويّاً على صعوبات جمّة، فقد كانت الغاية هي الاحتلال والسيطرة وإخضاع الآخر واستغلاله، ويدلّ على ذلك
حوار (أفاق) مع (التيس العنيد) ملك (أرض الوعول):

- ولكن، أصحيح أنك قلت لـ (ناطح الصخر) إنك قد أتيت من تحت، من أرض الأرواح؟!
- نعم يا مولاي.
- ولكن هذا مستحيل!
- كلا أيّها الملك العظيم، ليس مستحيلاً، ولو منحتني الفرصة فسأستطيع أن أثبت لك ذلك.
- وكيف؟
- أن أرجع إلى بلادي الآن لكي أعود ومعي بعض أبناء جنسي ليؤكّدوا لكم صدق دعواي (سعيد، ٢٠١٥م، ٦٢-٦٣).

إنّ هذا الحوار يدلّ على أنّ مرحلة ما بعد الاستكشاف هي المرحلة ذات الأهميّة القصوى، بحسب تقدير الأوربيّ؛ لأنّها ستكون
الثمرة الناضجة لفعل الاستكشاف، إذ كان الاستكشاف الأوربيّ تماساً أولياً مع الأماكن المستكشّفة، وجسّ نبض لسكانها
الأصليين، وتكوين صورة ابتدائية لهم، ومن ثمّ يبدأ التحرك الأوربيّ الفعلي للسيطرة على المكان المستكشّف واستغلاله. ونلاحظ
في النص المقارنة بين نوازع المستكشّف العدوانية وحسن نيّة المستكشّف وفطرته السليمة في التعامل مع الوافد الجديد، إذ إنّ



المستكشف يحتال على المستكشف لكي يعود إلى أرضه ومعها القوة اللازمة للسيطرة على الأراضي الجديدة، وما هذا إلا أسلوب عدواني مخطط له على وفق إيديولوجية التمييز العنصري المتبناة من الأوربي، التي "تهتئ منظومة متماسكة من المعتقدات والأسباب التي تسوّغ العنف الاجتماعي والجسدي ضدّ مجموعة عرقية أخرى" (رايان، ٢٠٢٢م، ١١٩)، ومن ثمّ تسبغ حالة إخضاع الآخر.

لم تكن مهمة (أفاق) الاستكشافية سهلة، بل واجهت المقاومة من (الحيوانات) التي تسكن (أرض الوعول)، وقد كان الوعل (عين العقل) الذي يرمز إلى المقاومة من أكثر (الوعول) التي تعي خبث هذا الوافد الجديد على أرضهم البكر، ومقاصده المريبة، كما يوضح ذلك الحوار بين (عين العقل) و(التييس العنيد) و(أفاق):

- أتريد أن تجلب إلى بلادنا بقية القتلة لتقضوا علينا أيها الشرير؟
- كان ينوي مهاجمة (أفاق)، ولكن بعض الوعول التي كانت حاضرة، أمسكته قبل الوصول إليه، فصاح (التييس العنيد):
- ويحك يا مجنون، كيف تجرؤ على اقتحام مجلسي هكذا؟!
- فقال (عين العقل) وهو يناضل لتحرير نفسه من الأيدي الممسكة به:
- عذراً أيها الزعيم، ولكن دعني أقضي عليه ما دام في متناول أيدينا وإلا ستندمون فيما بعد، يوم لا ينفع فيه ندم(سعيد، ٢٠١٥م، ٦٣).

ينبّه الحوار على الإنسان الواعي والمقاوم النابه في الأراضي المستكشفة الذي يتوجّس من تصرفات المستكشف، ويحاول أن يفضح نواياه أمام شعبه، ولكن فعله هذا يلاقي ممانعة من السلطة المحلية الجاهلة الحاكمة التي لا تقدر عواقب الأمور. وكثيراً ما كانت السلطة المحلية في البلدان المستعمرة تخضع للقوى الاستعمارية، فيما يقوم أصحاب المبادئ من عامّة الشعب بمهمة مقاومة الاستعمار. إنّ رؤية الكاتب في هذا الموضوع تجلو وضع المقاومة الوطنية، وتؤكد أنّها تلاقي المنع من المستعمر والسلطة الوطنية الجاهلة على حدٍ سواء، والتاريخ الحديث - ولا سيما تاريخ الشرق - مليء بأمثلة ذلك.

إذن، كانت رغبة الاستكشاف فاعلاً وموجّهاً عاماً في إعادة تشكيل (أرض الوعول) التي صارت تعرف بـ (دولة نسور الجبل) أو (دولة الجبل)، وكذلك في أحداث (الغابة) برمتها فيما بعد، كما كانت طبيعة المستكشف وشخصيته التوسعية



والانتهازية لها الأثر ذاته في أحداثها، إذ يؤكد الراوي ذلك الذي كان قريباً من (الحيوانات) الفاعلة في الأحداث، ومطلعاً على أسرار حكم (الغابة) وحكامها: "فلو لم يقرر أفاق في ذلك اليوم أن يطير عالياً لما اكتشف وجود الجبل، ولما وقعت تلك الأحداث الجسم التي غيرت وجه الجبل والغابة من بعده (...). وقد يقول قائل إن اكتشاف وجود الجبل كان مسألة وقت فقط بعد أن تعلمت الطيور كيف تطير، وهذا صحيح، ولكن أليس صحيحاً أيضاً أن المكتشف لو لم يكن أفاقاً، بل كان طيراً آخر، أقل أطماعاً منه وأكثر رحمة، لكان مصير الجبل وسكانه من الوعول مختلفاً، وبالتالي [كذا] مصير الغابة من بعده؟" (سعيد، ٢٠١٥م، ٦٥). في النص تحليل إيديولوجي وإح ربط أحداث العالم الحديث الدامية بشخصية الأوربي، أي لو كان المكتشف الأول غير أوربي، ربّما لم تصل أحداث العصر إلى هذا المستوى الدموي والصدامي. إن تلك النزعة العدوانية كانت مخبأة تحت مظلة مهمة الأوربي الحضارية الذي ادعى فيها انتشار العالم غير الأوربي من تخلفه، وإلحاق الشعوب الجامدة بعجلة التطور وعصر النور، فعندما وصل الغربيون إلى الأصقاع المستكشفة خارج الحدود الأوربية "أعلنوا أن هدفهم إدراج (العالم الخامل) في سياق التاريخ الإنساني الحيوي، وظهرت رسالة (الرجل الأبيض) مثلث الوجه: الفاتح المسلح، والمبشر الديني، والباحث عن الثروة. وترتبت علاقة الأوربي بغيره في ضوء علاقة جديدة هي علاقة التابع بالمتبوع" (إبراهيم، ٢٠١٩م، ١٧). يقول (تودوروف) في هذا الشأن: "وعلى مدار ثلاثمائة وخمسين سنة، حاولت أوربا الغربية استيعاب الآخر، إزالة الأخرية الخارجية، وقد نجحت في ذلك إلى حد كبير. فقد انتشر أسلوب حياتها وقيمها عبر مختلف أرجاء العالم، وكما أراد كولومبوس، فإن المستعمرين قد تبنوا عاداتنا وارتدوا ثيابنا" (تودوروف، ١٩٩٢م، ٢٥٩).

ثالثاً/الرمز الدال على العرب

اختلف الحيوان الذي يرمز إلى العرب في الرواية، فقد كان فيها أربعة حيوانات ترمز إليهم، مع احتمال توفّر رمز خامس يخرج عن نطاق الحيوان، ويدخل في صنف الحشرات (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ٢٣٢، ٢٣٦)، إذا ما استمر الانحدار العربي في المستقبل. إن اختلاف الرمز كان بسبب اختلاف الزمن، فقد اختلف الحيوان الدال على العرب باختلاف الحقب الزمنية التي عاشها العربي بين تحضر وتقهر، ورقي وانحدار، وفاعلية وجمود، واهتداء وحيرة، غير أن دلالة هذه الرموز تتجه تنازلياً وبصورة سلبية، فكلما تقدّم الزمن بالعربي تدنّت قيمة الحيوان الذي يرمز له، بيد أننا لا نعدم وجود بنية نقائلية تتوسط هذا الكم



الهائل من الإخفاقات، بوصف ذلك نوعاً من أنواع المقاومة السردية، بوجود بارقة أمل تتوسط السرد، تتمثل في إمكانية الرجوع إلى زمن التحضر، والرقي، والفاعلية، والاهتداء، ولو بعد حين، وهذه الرموز هي:

أ- الصقر

إنّ (الصقر) هو الشخصية الروائية الوحيدة، التي تحمل دلالة إيجابية تخصّ العرب، وسبق أن نوهنا إلى أنّه يرمز إلى العرب في أوج رقيهم الحضاري، أو إلى حالة العرب المثالية على مدار وجودهم، حينما كانوا فاعلين في الأحداث ومؤثّرين في الآخر، وناقلين المعارف والعلوم إلى أنحاء المعمورة، بعد أن نقلهم الإسلام من حياة التشتت، والخمول، والتلاطم في الرؤى إلى حياة التوحّد، والنشاط، واتّساح الرؤى. إنّ (الصقر) عندما نزل بـ (أرض النسور) أصبح محطّ أنظارهم؛ لأنّه كان متسلّحاً بـ (سحر الطيران)، في الوقت الذي كانت فيه (النسور) تمشي على الأرض؛ ولذلك أثارت رؤية (الصقر) الطائر استغراب (النسور) التي لم تنزل تمشي، فضلاً عن خوفهم وتوجّسهم:

- مَنْ أنت؟ ومن أين أتيت؟!
- أنا صقر وأتيتكم من أرض الصقور .
- ولكنك نزلت علينا من فوق، فكيف تدّعي أنّك أتيت من أرض أخرى؟!
- هذا لأنّي تعلّمت الطيران وهي طريقة أسرع للوصول إليكم.
- وما الذي تريده منّا؟
- جنّت لأعلمكم الكثير ممّا لا تعرفون (سعيد، ٢٠١٥م، ٣٠).

يتضمّن الحوار قصّة فضل العرب على أوربّا في مجال استحصال المعرفة، إذ أفادت أوربّا في نهضتها من العلوم التي تلقّوها من العرب على مستوى الآداب والعلوم النظرية، إذ لم يبدأ ازدهار الغرب ونهضته إلا حين بدأ احتكاكه بالعرب سياسياً وعلمياً وتجاريّاً. واستيقظ الفكر الأوربيّ على قدوم العلوم والآداب والفنون العربية من سباته الذي دام قرناً (هونكه، ٢٠٠٠م، ٥٤١). ويكفي مثلاً على ذلك: إنّ كتاب مثل: (الف ليلة وليلة) قد حفّز الغرب على الرغبة في النهوض العمراني - فضلاً عن الرغبة في النهوض الأدبي - عندما رأى الأوربيّ في الكتاب التطور الحضاري والعمراني في المدن العربية الكبيرة مثل: بغداد، والبصرة



والقاهرة ودمشق، وغيرها، وكذلك المدن المتخيلة ذات الصبغة الصناعية/ العجائبيّة مثل: المدن المبنية من النحاس والرخام. إنّ الرواية تحيل إلى الزمن الذي كانت فيه الذات مسيطرة على الآخر في مقومات المعرفة، بعكس وضع الذات في زمن السرد الذي تهيّرت فيه أمام الآخر. وهنا دعوة خفية إلى ضرورة التفكير في الشروع بنهضة عربيّة جديدة، انطلاقاً من الإرث المعرفي الذي كانت تمتلكه العرب.

وكان (الصقر) قد تعلّم (سحر الطيران) من الساحرة (لباب)، وبفضل سحرها استطاع (الطيران)، وأخذ على عاتقه أن يفيد بهذا (السحر) ما يستطيع أن يصل إليهم من (حيوانات الغابة)، بما في ذلك (حيوانات أرض النسور)، وكانت (لباب) تعوّل على (الصقر) في مسألة قيادة (الغابة) إلى برّ الأمان، بعد أن توسّمت فيه مخايل: الخير، والذكاء، والإصرار، والشرف: "شعرت بأنّي كائن آخر، كائن سعيد ومسكون بروح وثابة وسامية، فبقيت في تلك العلياء أطيّر بلا خوف وبلا هموم وأدور في الفضاء حرّاً، وقد نسيت أمر الساحرة الطيبة، ولكنّي بعد حين تنكّرتها فذهبت إليها وكانت قد حطّت على قمة شجرة قلت لها (أنا لا أعرف ما أقول) فابتسمت لي وقالت (لا تقل شيئاً بل اعمل. لقد وهبتك شيئاً من سحري فارجع إلى قومك وعلمهم العلم الذي صار طوع بنانك ثمّ امنحهم القدرة على الطيران).. وهذا ما فعلته بالضبط بعد عودتي" (سعيد، ٢٠١٥م، ٣٤-٣٥). ينبّه النص إلى رحلة العربي الغنيّة في تقصي العلوم والمعارف، بعد التحوّل الحضاري إثر مجيئ الإسلام، وكانت الرحلة متسارعة الخطى، وذات أسس صلبة، توضّحت نتائجها في زمن التحضّر العربي. وفي هذا مقاربة طباقية بين رسالة العربي ورسالة الرجل الأبيض، إذ أخذ الأول على عاتقه في زمن مضى قيادة العالم نحو التحضّر والتمدّن بما يمتلكه من علوم وقيم أخلاقية، في حين ادّعى الثاني أنّه حامل هذه الرسالة في العصر الحديث، بيد أنّه استغلّ هذه الادعاء في قهر الشعوب غير الأوربيّة واستغلالها.

إنّ (الصقر) العالم، والمعلم، وصاحب القيم العليا، والنوايا الحسنة أصبح تراثاً في عين أحفاده الآن، بعد أن تردّى وضعهم في الراهن، بل صار يُنظر إليه بوصفه أسطورةً تحتمل الصدق والكذب، للبون الشاسع بين أفعال (الصقر) العظيمة والمائزّة ومكانته الكبيرة في الزمن (الصقري) التليد، وأفعال أحفاده ومكانتهم في الراهن. ولكن ما تبقي واقعاً في هذا الأمر، هو خوف السلطة من (الصقر)، التي تتوسل بـ (أسد) الذي يرمز إلى المعبود، أن يجيرها منه، ويوضّح ذلك في حوار (الخلد) و(الأفعوان):

- ولكن، ما لي أراك تلخّ في ذكر الصقور وما هي إلا طيور أسطوريّة!؟



- من قال لك هذا؟! بل الصقور حقيقية، وموجودة، وقانا أسد شرها، ولكنّها وله الحمد قليلة.

- فأين هي إذا؟! أنا لم أر صقراً طوال حياتي!(سعيد، ٢٦٠، ٢٠١٥).

يلمح النص إلى الانقطاع الحضاري بين ماضي العرب الزاهر وحاضرهم الهش، إلى الحدّ الذي صار فيه العرب في الوقت الحاضر يشككون في إرثهم الحضاري ذي الشواخص الباقية. وهذا نقدٌ لاذع للعربي الذي يتنكر لتراثه، ولا يعي أهميته في مسار الإنسانية، ولا يفيد منه في إحداث نهضة على المستويات كافة، بل إنّ في النص أكثر من ذلك عندما أشار إلى خوف الحاكم من تراث أمته العظيم، ولم يتخذة مثلاً يحتذى به.

بيد أنّ الأمل ما يزال موجوداً في عودة (الصقور) إلى مسرح الأحداث، حينما تتعلم (الخلدة) (سحر الطيران) مرة أخرى، وتحلق في الفضاء، بدلاً من أن تعيش في جحور الأرض وأنفاقها، حتى تبعث الأحفاد (الخلدة) أمجاد أجدادهم (الصقور) المشرفة: "إما هذا، أو البدء منذ هذه اللحظة في سلوك الدرب العسير لكي تكونوا.. ولكنه صمت فجأة بعد أن هز رأسه بئاس، فقلت بحماس:

- لكي نكون ماذا؟!

- صقوراً مرة أخرى، كما كان أجدادكم(...).

قفزت بكلّ ما وهبني إياه الخوف من قوة استثنائية لأبتعد راکضاً بأقصى سرعة اتحت لي طوال عمري مبتعداً عن هذا الأفعوان المجنون الذي يتصور الخلدة صقوراً أسطورية!"(سعيد، ٢٣٢، ٢٠١٥). على الرغم من أنّ هذا النص يصف الواقع العربي بدقة متناهية بتأكيده صعوبة بعث الأمجاد العربية في الوقت الحاضر فإنّ البنية التفاوضية تقنمه بقوة، وهي جزء لا يتجزأ من المضمون الإيديولوجي فيه، إذ لا يُستبعد، تغيير الراهن العربي من الأسوأ إلى الأفضل على الرغم من صعوبة ذلك عملياً، ولكنه ممكن في ضوء استمداد العربي من تراثه الأصيل وقيمه النبيلة، بشرط وجود الدافع والرغبة في التغيير.

ب-النعام

يرمز (النعام) إلى العرب بعد الزمن (الصقري)، عندما فرطوا بعلومهم ومكانتهم بين الأمم؛ لأسباب متعدّدة ومختلفة، لعلّ أهمها الصراعات الداخليّة والفتن المذهبيّة، والحروب الخارجيّة، أي يرمز إلى مرحلة التقهقر العربي الأولى في العصر الحديث، قبل



مرحلة التراجع والنكوص التام، فقد كان (النعام) - كما هي الصورة المترسخة عنه في الذهن - يقوم أحياناً بدفن رأسه في الأرض، بينما يكون باقي جسده خارجاً، وقد ترك (النعام) حالة الدفن الكلي: (الرأس والجسد) في الأرض إلى الزمن (الخلدي). لقد تنبّه (النسور) إلى (أرض النعام) التي ترمز إلى الأراضي العربيّة، وما تمتلك من ثروات يمكن وضع اليد عليها واستغلالها في تعظيم ممالكهم، ورفد اقتصادهم بثروات جديدة، وقد كانت المبادرة الأولى من (الديك) الذي يرمز إلى (نابليون بونابرت) امبراطور فرنسا، و(مملكة الديوك) التي ترمز إلى فرنسا، إذ سعى (الديك) إلى أن يزاحم (ملك النسور) الذي يرمز إلى بريطانيا من جهة، و(البواشق) التي ترمز إلى دولة المماليك من جهة ثانية في احتلال (أرض النعام) وإخضاعها ونهب ثرواتها، إذ كانت (أرض النعام) آنذاك خاضعة لحكم (البواشق). ويحكي (الأفعوان) قصة هذا (الديك) الطموح مع (أرض النعام) بتفاصيلها الدقيقة إلى (الخلد): "كان بارعا في قيادة قواته وبثّ روح الحماسة فيها، فأصبح فجأة عدوّاً يبيثّ الرعب في قلوب خصومه وخاصّة قلب ملك النسور.. كان طموحاً جداً، حتّى أنّه وصل بفتوحاته إلى بلاد النعام المنسيّة في أطراف الغابة الشريقيّة (...). كانت النعامات في ذلك الوقت خاضعة لحكم البواشق، فهزم جيش البواشق وسيطر على تلك الرقعة المهمّة من الغابة" (سعيد، ٢٠١٥م، ٩٧-٩٨). يشير النص إلى اللقاء الأول بين الغرب والعرب في العصر الحديث، إذ كان هذا اللقاء دامياً؛ لأنّه باكورة الحركة الاستعماريّة الحديثة التي استهدفت الأراضي العربيّة، حينما سعت فرنسا في عام ١٧٩٠م إلى احتلال مصر، التي كانت تحت سلطة المماليك آنذاك، ولا شكّ في أنّ هذا اللقاء كان لقاءً مؤسساً لحالة العداء والتصادم بين الذات والآخر، أو بين العرب والغرب، التي استمرت إلى الوقت الحاضر.

بيد أنّ (الديك) لم يستطع أن يستمر طويلاً في احتلال (أرض النعام)؛ بسبب مشاكل دولته الداخليّة، ولاسيّما ما كانت تقوم به زوجته (الدجاجة الشبقة) التي ترمز إلى (جوزفين) زوجة (نابليون بونابرت)، من أفعال مخجلة، ومغامرات جنسيّة فاضحة: "إنّ الذي كان يزعجه من الأمر ليس الشرف، أو معايير الوفاء والإخلاص، فهو لم يكن عفيفاً هو الآخر، ولكن الألم، كلّ الألم كان يصيب كبريائه وغروره، وأثناء المعارك الداخليّة التي كان يخوضها ضد الدجاجة الشبقة والتي انتهت بهزيمته مرّة أخرى كما هو معتاد، على العكس من معاركه الخارجيّة المظفّرة حتّى ذلك الحين، وصلته أخبار انسحاب جيشه من بلاد النعام المفككة" (سعيد، ٢٠١٥م، ٩٨). إنّ انسحاب فرنسا من الأراضي العربيّة؛ لأسباب داخليّة، ترك الباب مفتوحاً، أمام الحركات الاستعماريّة الأخرى، لكي تلج منه إلى هذه الأرض لاستغلالها، ولا سيّما الممالك الأوربيّة الصاعدة، التي سعت إلى سدّ الفراغ



الذي خلفه الاستعمار الفرنسي. ومن جانب آخر، تصادفنا في النص المقارنة، التي تحتوي كثيراً من المفارقة، بين تنامي القوة الاستعمارية القاهرة وتدني قيم قاداتها الأخلاقية، وذلك بالإشارة إلى انتصارات فرنسا الخارجية الساحقة، ومجون ساستها المخجل وانحلال أخلاقهم في الداخل.

إنّ (أرض النعام) كانت ضحية الاقتتال الدامي بين (ممالك النسر القديمة) فيما بينها، إذ استُعمرت بعد (مملكة الديوك) من (ملك النسر) الذي بدوره أخضع (النعام) لحكمه الظالم والتعسفي، ولكن هذه الممالك اضطرت إلى أن تتسحب من (أرض النعام)، مخلفة وراءها بؤرة توتر من الصعب أن تهدأ وتستقر، أثرت في الواقع الحالي: "انسحبت دول السيادة القديمة بصمت من معظم أملاكها، ولكن ملك نسر الغابة أبي إلا أن يعطي مثالا حياً عن خبته وتكبره لكل المبادئ الحيوانية.. فقد كان طوال فترة حكمه لجزء كبير من بلاد النعام، يمتص غضب النعامات القليلة التي تقف بوجهه بالادعاء بأنه إنما يقيم لها دولاً عصرية وأنه سيتركهم حالما يصبحون مؤهلين لحكم أنفسهم، ولكنه حينما اضطر للخروج مرغماً (...) منح ما لم يكن من حقه أن يمنحه إلى من لا يستحق، فتنازل عن جزء من تلك الأرض للغربان بمباركة القوى الكبرى في الغابة آنذاك" (سعيد، ٢٠١٥م، ٢٣٦-٢٣٧). في النص كشف للاستعمار البريطاني القائم على قمع الحركات الوطنية العربية من جهة، وإعطاء الوعود الكاذبة بحياة أفضل للمستعمرات؛ لامتصاص فورة الكفاح الوطني من جهة ثانية. لكنه وفي بوعده للدخلاء عندما منحهم جزء من الأراضي العربية من غير استحقاق، فيما سُمي بـ (وعد بلفور) سيئ الصيت. وفي هذا الوقت كان العربي - سلطة ومقاومة - مذهولاً لا يستوعب ما يحدث، ولا يعرف ما الخطوة التالية التي يجب عليه أن يشرع بها، إذ "إنّ المستعمر يعيش في خشية دائمة، لأنه لعجزه عن فهم تلك العلامات الكثيرة التي تفصل العالم الاستعماري عن عالمه، لا يعرف في لحظة من اللحظات أهو تجاوز الحد المرسوم أم لا" (فانون، ١٩٨٤م، ٢٤).

ولم تتوقف مأساة (النعام) عند جرائم (الديك) وفضائع (ملك النسر)، بل تعدت إلى مأساته مع (النسر الأصلع)، الذي يرمز إلى أمريكا بعد أن أصبحت القوة الكبرى الأولى في العالم مع أفول القوى القديمة أو شبه أفولها، إذ كان أي خلاف بين (النسر الأصلع) ومنافسيه من القوى الأخرى وبالأعلى (أرض النعام)، فحينما يختلف مع (الدببة) التي ترمز إلى الاتحاد السوفييتي السابق، يصب جام غضبه على (النعام)، وعندما ينزعج من أفعال (البوازي) التي ترمز إلى ألمانيا، ينتقم من (النعام) أيضاً، وكذلك الحال عندما يوبّخه جدّه (الغراب) الذي يرمز إلى الصهيونية العالمية فإنه يسحق النعام. إنّ هذا القسوة المفرطة من



(النسر الأصلع) إزاء (النعام) تتطوي على غاية إيديولوجية هي: سحق (النعام) أمام قوة (الغراب) المتنامية في (الغابة) الذي تحالف تحالفاً مصيرياً مع (النسر الأصلع): "لقد رأيت عجباً في تعامل النسر الأصلع مع النعامات، فهو حينما يغضب من الذبابة، يبادر إلى ضرب النعامات، وحينما يسوؤه تصرف البوازي، يسحق النعامات، بل هو حينما يهينه جده، يصب جام غضبه على النعامات! ومن السخرية أن نعرف أن كل الحيوانات المعدة للذبح يجب أن تسمن إلا النعامات فهي طوال عمرها تتضوّر جوعاً قبل أن تُذبح على يد الغراب ذراع النسر الأصلع الطولى في المنطقة (سعيد، ٢٠١٥م، ٢٧٠). وهنا إشارة إلى الواقع الحديث والحالي، بعد أن تنامت أمريكا نمواً مخيفاً، ووصلت إلى أن تكون القطب الأوحى في العالم، بعد انزواء الأقطاب الأخرى أو ضعفها. وكان صعود أمريكا قوةً عظيمةً وكبيرةً ومحنةً على الأراضي العربية بتحرير من الصهيونية العالمية، فكانت أية حادثة أو صراع بين أمريكا ومنافسيها يكون له مردود انتقامي يطول العرب؛ لإبقائهم تحت الضغط، واستنزاف ثرواتهم الكثيرة، وجعلهم ضعفاء إزاء الصهيونية.

ولا يعني وضع (النعامات) هذا أنها كانت سلبية ومتخاذلة على طول مسار الأحداث، ولم تحاول أن تنتفض لواقعها المؤلم، بل كانت لها محاولات لتغيير واقعها، والرجوع إلى وضعها السابق (صقوراً) تخرق الآفاق طيراناً على الرغم من صعوبة ذلك، وكان (الظليم نعمان) الذي يمثل المقاومة العربية في العصر الحديث أول من حاول ذلك، بعد أن طلب العون من (لباب) الساحرة، لتزوده بـ (سحرها):

- رحماك أيتها السيدة أعيني من أذاك محتاجاً لنور سحرك (...).
- ومن تكون يا هذا؟ انتظر، ألسنت نعامة؟!
- بلى.
- ويحك، أتجرؤ على استجداء ما سبق وأن ضيَّعته، مني؟! (...).
- ولكن ما هو هذا الذي ضيَّعته؟! أه أتقصدن وطني؟ ولكن ما الذي كان بإمكانني أن أفعله إزاء القوة الغاشمة؟!
- أن تقاوت حتى الموت على الأقل، ولكن ليس عن هذا أنا أتحدّث.



- عمّ إذا يا سيدتي المبحلة؟

- عن إرث أجدادك الذين كانوا هم أمناء سر سحري الذي جئتي الآن مستجدياً إياه (سعيد، ٢٠١٥م، ٢٥٠).

إنّ في الحوار بنيتين مختلفتين، الأولى: تفاعلية، نجلوها برغبة العرب في اللحاق بركاب الأمم المتحضّرة في الوقت الحاضر، واستلهم علوم العصر، والرغبة في المضي بمشروع مقاومة الآخر، وإدراج العرب مرّة أخرى في معادلة التسابق الحضاري. والثانية: نقدية تستهدف الذات، تجلّت بالتعريض بالعرب؛ لتقريطهم بعلومهم، ومعارفهم، ومكانتهم الكبيرة بين الأمم الأخرى، حينما كانوا أسياد العالم في زمن نضوجهم الحضاري ورقّهم وتطوّرهم .

إنّ العنف بين (الحيوانات) أصبح سمة (الغابة)؛ ولذلك دخلت (النعومات) في حروب قاسية مع الأعداء الذين يهدفون إلى السيطرة على (الكم) الذي يرمز إلى النفط، فقد كانت (أرض النعام) مكماً عظيمة (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ١٧٨). وقاتلت (النعومات) قتالاً شرساً في مواجهة (الغراب) بقيادة (الظلم نعمان)، وانبرت للدفاع عن نفسها على الرغم من أنّ (الغراب) كان يمتلك (السحر القديم) الذي يرمز إلى الأسلحة التقليدية (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ١٦٧)، و(السحر الأسود)، أو (السحر الجهنمي)، أو (السحر القاتل) الذي يرمز إلى الأسلحة الجديدة المتطورة (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ١٥٩، ١٦٠، ١٨٦)، بعد أن منحته (النسور) هذين (السحريين)، فضلاً عن دور (الخفافيش) التي ترمز إلى الإعلام الاستعماري أو غير المحايد أو المضلل (ينظر: سعيد، ٢٠١٥، ٢٩٤)، والتي أظهرت (الغراب) بصورة المظلوم، مع أنّه كان ظالماً ومعتدياً غاشماً. ولكنّ (النعومات) خسرت الحرب؛ بسبب احتيال بعض (الأفاعي) التي ترمز إلى الحكم الوطني العميل، أو العملاء في مواقع السلطة العليا على (النعومات) بتزويدها بـ (الحيل التافهة) التي ترمز إلى الأسلحة الفاسدة، والتي لا تجدي نفعاً ولا تعمل أي عمل خارق. وخاضت (النعومات) حرباً مشرّفة، أظهرت فيها بسالة أجدادها (الصقور) على الرّغم من أنّ الأعداء كانوا يمتلكون (سحر سراب): "ما الذي يمكن أن نفعله أمام سحر سراب الذي كان طوع ريشات أجنحة الغربان؟ دُحرنا ولكننا قاتلنا قتال الصقور قبل أن نُهزم (...). لقد أوهمتنا الأفاعي بأننا نمتلك السحر، لنقاتل فنتخلّص من إثم ضياع الأرض، ونُهزم لتحفظ برضا أسيادها عنها (...). وما أسمته سحراً تبين أنّه ليس إلّا نوع من الحيل التافهة التي تعتمد على الخداع البصري فقط" (سعيد، ٢٠١٥، ٢٤٢). في النص وصف للحرب التي استهدفت العرب من أعداء متحالفين امتلكوا القوة القاهرة، إذ سعى الأعداء في هذه الحروب إلى النيل من الهوية العربيّة، والثقافة الأصيلة، ووضع يد الاستعمار الجديد على الإمكانيات الاقتصادية العربيّة،



والثروات القوميّة؛ لأنّ الغرب يعي أنّ العرب إنّ حافظوا على هويّتهم من التشظّي، وسعوا إلى تأكيدها، وامتلكوا القدرة على التصرف في ثروتهم القوميّة، يصيروا قطباً عظيماً، يضاهاي الأقطاب العالميّة الكبرى، وهو الأمر الذي لا يريده الغرب.

وثمة شيء إيجابي تتمتع به (النعام)، جاء على لسان ألد أعداء (النعام)، أعني: (الغراب)، وإنّ جاء هذا الشيء الإيجابي على سبيل التهكم والسخرية، وذلك عندما تضمّن الحوار الدائر بين (النسر جرجي) و(الغراب) سرد المعايير المهمّة التي يمكن بواسطتها تحقيق ما تطمح إليه (الحيوانات) وما ترغب فيه، وضرورة الاستعانة بـ (السلحفاة) التي ترمز إلى حياة الدعارة والمجون في أوربا، في تدعيم الدولة الاستعماريّة الناشئة. وفي هذا الحوار قرّنت (النعامات) بـ (الجمل) الذي يرمز إلى الفضيلة والأخلاق والمبادئ العليا:

- هل ترى ما هو أشدّ إغراءً مما تقدّمه هذه السلحفاة الطيبة من خدمات؟!.

فقال جرجي وهو يبدي اعتراضاً خجولاً:

- ولكن ألا تخاف من إغصاب الجمل، إله الأخلاق الفاضلة.

فقال الغراب وهو يكاد لا يستطيع أن يخفي ابتسامة سخرية راودت منقاره:

- هيا يا سيادة الرئيس، لا تكن نعامة، ألا ينبغي لنا إزاء الأهداف السامية أن نتنازل قليلاً عن أخلاقنا الفاضلة؟(سعيد،

٢٠١٥م، ١٢٠).

إنّ الحوار تضمّن بنية تقاؤليّة أخرى اعتمدت على إصاق الفضائل المعنويّة والمبادئ والقيم بالعرب؛ لأنّ "القيم أساس هوية الناس، ومعنى خصوصيّتهم باعتبارهم أعضاء في الجنس البشري" (واثيتغو، ٢٠١١م، ٤٠). ولكن هذه القيم والمبادئ امحت من فكر المُستعمر، ومروجي مشروع العولمة المدعوم والمفروض من الكولونياليّة الجديدة، وصارت من الأمور التي تثير السخرية عندهم، فمن "الأركان الرئيسيّة للكولونياليّة والعولمة هو أنّهما تحاولان فرض إيديولوجيا متّسقة للتقدم والتنمية والحضارة" (رايان، ٢٠٢٢م، ٤١٩). وفي الوقت الذي لا يزال فيه العرب يحتفظون بقدر جيّد من المثل، والمبادئ، والوازع الديني، والأخلاقي، يرى المُستعمر أنّ هذه الأمور صارت من قشور الحضارة، ولا تتسجم مع مشروع العولمة، واقتصاد السوق الذي تقوده أمريكا، بدعم من الصهيونيّة العالميّة.



ج-الخلد

يرمز (الخلد) إلى العرب في المرحلة التي أعقبت زمن (النعامات)، أي العرب في الوقت الحاضر. إنَّ (الخلد) يعيش في جحور الأرض وأنفاقها، ولا يكاد يُرى على سطح الأرض إلا في أوقات نادرة، فهو مقتنع الاقتناع كله بمسكنه الجوّاني هذا، ولا سيّما بعد أن تعرّض إلى حادث أفقده حاسة الشم، التي يستجلي بواسطتها طريقه المظلم بين الأنفاق والجحور: "اصطدم أنفي الذي يسبقني دائما، بجدار صلد، بكلّ عنف، فسقطت على الأرض.. كانت تلك الصدمة حرّية بإفقادي وعيي في الحالات الاعتيادية، ولكن حالي آنذاك لم يكن عادياً، ولذلك لم أسمح لنفسي بأن تفقد وعيها، ولكنني فقدت مع ذلك حاسة الشم التي كانت تعينني في شم رائحة الخطر، لا رائحة الطعام، فقدتها في ذلك اليوم نهائياً" (سعيد، ٢٠١٥م، ١٥). ينتقد النص الواقع العربي في الراهن انتقاداً شديداً، بعد أن بدأ العرب باستعمال أضعف أدوات المعرفة في حياتهم، ومقاربة أحداث العصر الكبرى، وقد أشار النص الرمزي إلى ضعف أدوات المعرفة بحاسة الشم، التي تُعد من أضعف الحواس مقارنة بالحواس الأخرى (ينظر: هاينز، ٢٠٠٩م، ٢٧٣-٢٧٤). وحتى هذه الأدوات الضعيفة التي يستعملها العربي الآن، فقدّها أخيراً جزاء حوادث العصر الكبيرة التي واجهته، والتي أشار إليها النص الرمزي بحادثة اصطدام أنف (الخلد) بالجدار الصلد. أي أنّ العربي صار يقارب قضية الصراع الحضاري من غير أن يتسلّح بأدوات المعرفة؛ ولذلك أصبح من الصعب عليه تحديد بوصلة اتجاهه في المشاركة في أحداث العالم المهمّة، ومن ثمّ سيكون بعيداً عنها.

يعتقد (الخلد) أنّ (الخلدة) يتّصفون بالذكاء، إلّا في معرفة علّة اتخاذهم جحور الأرض موطناً لهم، وأسباب تراجع دورهم الذي كان مركزياً في أحداث (الغاية) على الرّغم من غنى وطنه الذي لا يعني بالضرورة غنى عامّة (الخلدة) الذين كانوا في فقر دائم (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ١٢)، ولكنّه في مقابل ذلك يعي جيداً أهمية موطنه السفلي: "إنّ الخلدة أذكيا بطبعهم، ولكنهم يعبرون عن غباء كبير لعدم إدراكهم حقيقة الدرك الذي وصلوا إليه، سواء إن كان ذلك بفعل فاعل غريب، ولغرض ما في نفسه، أو بسبب شذوذ تصرفاتهم وغرابتها. إنّ موطننا غني جداً فهو يقع تحت الأرض وهذا يعني أنّنا نمتلك جذور النباتات، والجذور مثلما تعرفون تكون أغنى أجزاء النبات، وهو مصدر مهم من مصادر ثرواتنا المتعددة" (سعيد، ٢٠١٥م، ١٠). يشير النص إلى حيرة العربي في تحليل أسباب تراجع دوره الحضاري، عندما صار يعيش في الهامش، فيما صارت الأمم الأخرى تعطي المتن. إنّ عدم معرفة أسباب ذلك، يصعب مهمّة التخلّص من الواقع المزري الذي تعيشه الذات العربية في هذا العصر،



والذي أنتج الحرب، والاضطراب السياسي، والانحطاط الاقتصادي، وغيرها من الانتكاسات. وينتقد النص حالة التناقض في الواقع العربي، فالبلاد العربية غنية بالثروات ومواطنوها يعيشون في فقر مدقع، أي أنّ غنى البلاد شيء وغنى الشعب شيء آخر، وأسباب ذلك كثيرة ومتشعبة، منها ما يتعلّق بالذات نفسها، ومنها ما يتعلق بالآخر الاستعماري وممارساته.

ويعترف (الخلد) بأنّ سمعة (الخلدة) سيئة في (الغابة)، ويلقي باللائمة في ذلك على (الخلدة) الأغنياء، وليس على الشعب (الخلدي) برمته. إنّ هذا الاعتراف يمثّل حالة من حالات صراع الطبقات الحيوانية (الطبقة نوبا) في (أرض النعام)، التي ألمح إليها (الخلد) في موقف سابق (ينظر، سعيد، ٢٠١٥م، ١٢)، إذ أضاف هذا الصراع مأساة أخرى على المآسي التي يعانيها (الخلدة): "إنّ الأغنياء منّا هم المسؤولون عن السمعة السيئة التي ترسّخت في أذهانكم عنّا، نعم، هم المسؤولون بسبب تصرفاتهم حينما يزورون بلدانكم، وهم غالباً ما يفعلون ذلك. ولكنّي لا أعجب لحال الذين يتصرفون تصرفات غير حضارية وهم هناك، فيهدرون سمعتنا في أحضان الغواني وصلات (الرو- ليت)" (سعيد، ٢٠١٥م، ١٢). يتجلى في هذا النص صراع الطبقات في البلاد العربية، فنّمّة افتراق كبير بين حال الطبقة الفقيرة المتردّية، وحال الطبقة الغنية المتعمّعة، ويُلقى هذا الصراع بظلاله على وضع البلاد العام فيزيدها سوءاً. وينتقد النص أيضاً احتفاء الأغنياء العرب بالرّغبات الذاتية، وبسفاف الأمور، وعدم اضطلاعهم بدور فاعل في انتشار البلاد العربية من واقعها المتحلل، والأغنياء ربّما يكونون أفراداً أو دولاً صغيرة غنيّة. في حين يهتم الآخر بعظائم الأمور، وفي تعزيز مكانته الحضارية بشئى السبل. وفي هذا الوصف نقد لاذع موجّه إلى الأغنياء العرب الذين انزروا في مكان بعيد عن الأحداث الكبرى؛ ولذلك لم يكن للعرب فيها فاعليّة أو دور، كما كانوا في السابق، وصار فعل الحدث يقع عليهم اليوم، أو يُصنع بعيداً عنهم، بعد أن كانوا يصنعون الحدث، أو في الأقلّ يشاركون في صنعه.

وبرؤية معاكسة يعتقد (الخلد) أنّ ما يقوم به هؤلاء الأغنياء يعد - على نحو من الأنحاء - نوعاً من أنواع المقاومة، أو صورة من صور الانتقام من (النسور) وهزمهم في عقر دارهم، فبعد أنّ تعدّر مقاومتهم في الأراضي (الخلدية) بالنضال والكفاح المسلّح، أصبح بالإمكان هزيمتهم جنسياً، بوساطة طاقة (الخلدة) الجنسية الفحولية الاستثنائية، وهذا الأمر - بطبيعة الحال - نوع من أنواع تبرير فشل (الخلدة) إزاء ما تقوم به (النسور) من فظائع بحقهم في أراضيهم: "إنّني أعتبر هؤلاء وأولئك أحياناً، أبطالاً قوميين، حينما أسمع أخبار غزواتهم الأنثوية في بلدانكم. نعم، فهم يحقّقون بذلك نصراً مزدوجاً عليكم أنتم يا من تريدون هزيمتنا، فهم ينتقمون بانتهاك حرمة إناثكم وهم بين ظهرانيكم، جزاءً لكلّ المؤامرات والدسائس التي تحيكونها ضدنا، كما أنّهم



يحافظون على سمعتنا الفحولية التي هي أساس عزتنا ومبعث فخرنا" (سعيد، ٢٠١٥م، ١٣). إنَّ النص يقارب علاقة الذات بالآخر من منظور مجانسة العلاقات الحضارية، وهي فكرة تكررت في غير رواية من الروايات العربية، ولعلَّ من أشهر هذه الروايات: الحي اللاتيني لسهيل إدريس، وموسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح، بوصف ذلك نوعاً من أنواع مقاومة الآخر، فنظراً إلى علاقات الرجل بالمرأة في ظل الحضارة الأبوية - التي هي حضارتنا - كانت منذ أوف السنين ولا تزال علاقات اضطهاد وسيطرة، فإنَّ سحب (طبيعة) تلك العلاقات على العلاقات بين الإنسان والعالم يقم تبريرات ممتازة لتحكيم مبدأ الاضطهاد والسيطرة في علاقات الإنسان بالعالم" (طرابيشي، ١٩٩٧م، ٦). وهي فكرة تحاول تغيير معادلة الصراع بما يوفر رضاً نفسياً للذات ليس إلا، وذلك بتأكيد ذكورة العرب إزاء أنوثة الغرب، وهي نظرة قاصرة؛ لأنَّ العلاقة الجنسية في ذهن الغربي هي علاقة مشاركة، وليست علاقة غالب بمغلوب، كما يتصورها ذهن العربي، ولكنَّ حالات: الضعف، والنكوص، والتراجع الفكري والثقافي، تجعل العربي يعيش في حالة إهامية غير واقعية، توهمه بأنه منتصر على الآخر، حينما يقيم علاقة جنسية مع نسائه، إذ إنَّ شعور العربي "بالخصاء الثقافي لن يزيده إلا تشبثاً بذكورته، ومعاناته من العنة الفكرية لن تزيده إلا تأجج فحولته" (طرابيشي، ١٩٩٧م، ١٤). أي يحاول أن يعوّض تراجع الفكري والثقافي والسياسي، بالانهمام بالجنس في أرض الآخر، ليحقق سكوناً نفسياً، ليس له أي تأثير على أرض الواقع.

ومع صعوبة أن تتحوّل (الخلدة) إلى (نسر) أو ترجع إلى أصلها بوصفها (صقوراً) طائفة في هذا الزمن، فإنَّها يمكن أن تتحوّل إلى (أفعوان)، وهذا التحوّل ما هو إلا انحدار طبيعي أكبر وأخطر في حياة (الخلدة)، كما سيتبين في الفقرة اللاحقة، وأصبحت حالة التقهقر ممكنة، بينما صارت حالة التطور، أو بعث الأمجاد (الصقرية) أمراً لا يخلو من صعوبة، كما يتضح ذلك من حوار (الخلد) و(الأفعوان):

- نعم، بدأت أحبك وأنا أفكر بتبنيك.
- ولكن هذا يعني بأنني سأكون أفعوانا أنا الآخر .
- ولم التعجب وكل منكم معشر الخلدة يمكن أن يكون في مكاني؟.. قل لي ألا تتصور أنك يمكن أن تصبح أفعوى

يوما ما(سعيد، ٢٠١٥م، ٢٥٩).



إنّ النصّ يلمّح إلى قولبة الشعب بالقالب الذي تصنعه السلطة، لكي يكون الشعب على النهج الذي تتبناه السلطة، وتأكيد حالة المسار التنازلي التي درج عليها؛ لإبعاد فكرة مقاومة السلطة عن ذهنه، بتحويله من معارض لسياسة الحكم إلى موالي لها. أو بتعبير آخر: احتواء طبقة الشعب الكادحة من طبقة الحكّام الاستقرائيّة.

تحققت نبوءة (الأفعوان)، أو آتت عملية تحويل (الخلد) إلى (أفعوان) أكلها، التي دأب (الأفعوان) في اتمامها على أكمل وجه ابتداءً من لقاءهما الأول، بعد أن صار (الخلد) تحت رعاية (الأفعوان) ورعاية أعوانه (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ٢٥، ٢٢٩، ٣٢١)، استمرت حالة الانحدار في الأمة (الصقريّة) في الراهن، عندما تحوّل (الخلد) إلى (أفعوان) وهذا التحوّل هو آخر مرحلة من مراحل التقهقر (الحيواني)، إذ نجد ذلك في قول (الخلد) الذي انتهت به الرواية: "أويت إلى غرفتي لأستعيد ذكرى ما حدث قبل قليل على مهل، اكتشفت أن أطرافي كانت قد بدأت بالضمور من دون أن أنتبه! شعرت برعب كبير بسبب هذا الاكتشاف، ورحت أدور حول نفسي وأنا لا أعرف ما الذي يجدر بي فعله! وأثناء دوراني ذلك، لاحظت أن ذيلي كان قد استطال كثيراً وقد ظهرت عليه حلقات هي أشبه، بالحرشف!" (سعيد، ٢٠١٥م، ٣٢٧-٣٢٨). في النص جلد للذات، وذلك بالاعتراف بأنّ التقهقر، والتحوّل إلى واقع أسوأ، لازال مستمراً حتّى الآن في الواقع العربي. إنّ الذات تجلد ذاتها للتخلص من تأنيب الضمير، ولأشكّ في أنّ (جلد الذات) حالة سلبية، ولكن قد تحتل التقويم أحياناً، إذا نظرنا بالطرف الإيجابي للأشياء، وأيضاً إذا تداخل مفهومها: (الرقابة الذاتية) و(نقد الذات) مع مفهوم (جلد الذات)، فبدلاً من أن ترتقي الأمة حضارياً، نجدها تتحدر في الراهن، وهو ما يشكّل صدمة كبيرة للذات.

د- الأفعوان.

يرمز (الأفعوان) إلى السلطة العربيّة ما بعد المرحلة الاستعماريّة، التي تسنّمت الحكم بمساعدة الدول الاستعماريّة وأجهزتها المخابراتيّة، فصارت تنفذ مخططاتها على حساب المصالح العربيّة، إنّ (الأفعوان) لا يزال مؤثراً في مجرى أحداث (الغابة)، ولم تنته مهمّته بعد، بدلالة محاولته الانتحار بوساطة استلقائه في طريق (الأفيال) التي ترمز إلى نوع من أنواع الأسلحة (الدبابات) وما شابهه (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ١٩-٢٣)، ثمّ إلغاء فكرة الانتحار نهائياً، واستمراره في العيش (أفعواناً) (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ٢٥٧)، وهو ما يعني استمرار حالة الحكم الوطني ما بعد المرحلة الاستعماريّة الذي يدين بالولاء إلى الامبرياليّة العالميّة. وقد استبان هذا الرمز من الموقف الأول الذي جمع بين (الخلد) و(الأفعوان)، كما يوضّح هذا الحوار:



- حسناً، حسناً، فقط قل لي لماذا يورد الضمير حيواناً، موارد الهلاك!؟
- حينما يكون طريقه معبداً بأجساد الحيوانات، وخاصةً إذا كانت من أبناء جنسه (...).
- ألا تعرف أيها الساذج أنّ الأفاعي ليست صنف حيوانات قائم بذاته، بل هي حيوانات متحوّلة.
- ماذا؟ متحوّلة!.. ما الذي تقصده بمتحوّلة!؟..
- أقصد أنّها حيوانات كغيرها ولكنّها تتعلم الخضوع والركوع لغيرها حتى تفقد بمرور الوقت عادة السير وتتعوّد الزحف
- فتستحيل إلى زواحف حقيرة (سعيد، ٢٠١٥م، ٢٣-٢٤).
- إنّ السلطة الوطنيّة ما بعد المرحلة الاستعماريّة أو ما يصطلح عليه بدولة ما بعد كولونياليّة (Post-Colonial State)، لا تستطيع مقاومة الآخر الغربي الذي يدفعها إلى احتذاء النسق الاستعماري في التعامل مع الشعب، ومثلما كان تمكين الاستعمار معبداً بالضحايا من أبناء المستعمرات، كانت بعض السلطات الوطنيّة تحكم قبضتها على السلطة بسحق المعارضين من أبناء الشعب. وعلى الرّغم من أنّ السلطة الوطنيّة هي جزء من الشعب ومتّصلة به، فإنّها تتصلّ لهذه الصلة، بمساندة العدو الخارجي الذي دفع بأن تكون هذه السلطة سلاحاً ضارياً في يده، وعدواً داخلياً للشعب.
- ولم يكن (الأفغون) فيما سبق إلاّ (خدلاً) من عامّة (الخلدة)، دزبته (النسور) ورؤضته، ليكون حاكماً على (الخلدة)، ليرعى مصالح (ممالك النسور) في (أرض النعام)، وإسناده بـ (سحر سراب)، وهي المرحلة الأخيرة من مراحل تحوّل (الحيوان) من حيوان راقٍ إلى (حيوان) منحط، بحسب نظريّة الانحدار الطبيعي، أي تحوّل من أعلى مرتبة إلى أدنى مرتبة، وهو الأمر الذي أثار استغراب (الخدل):

- أفهم من كلامك أنّك كنت يوماً، كنت، كنت..

- خدلاً؟ (...).

- نعم.

- ولكن هذا مستحيل!



- ولم هو مستحيل؟

- كيف يمكن أن يتغير الحيوان بهذا الشكل!؟

- بفضل الانحدار الطبيعي وببركة سحر سراب (سعيد، ٢٠١٥م، ٢٤-٢٥).

في النص تعريض واضح ببعض السلطات الوطنية التي أعقبت المرحلة الاستعمارية، والتي كانت تمثل البرجوازية الوطنية المنساقعة مع المشروع الغربي، والماشية في ركابه، وصارت تعمل على تحقيق مصالح الغرب أكثر مما تعمل على تحقيق مصالح رعاياها. ويمكن عزو أسباب ذلك إلى "أنّ الضعف الكلاسيكي المعروف الذي يعانیه الوعي القومي في البلدان المتخلفة لا يرجع فقط إلى أنّ النظام الاستعماري قد أفسد الإنسان المستعمر، وإنما يرجع أيضاً إلى كسل البرجوازية الوطنية، وإلى فقرها، وإلى أنّ فكرها قد تكوّن تكوّنًا كوزمبوليتيًا في قراراته" (فانون، ١٩٨٤م، ٨٢-٨٣). إنّ الرمز المستعمل لتوصيف هذه الحالة يدلّ على أنّ هذا التغيير هو تغيير سلبي، فالسلطة الوطنية تخضع للغرب، وتكون أداة لتنفيذ المآرب الإمبريالية، بعد زوال الاستعمار التقليدي، وتعويضه بآخر جميل المظهر، لكنّه قبيح الداخل، يدعم السلطة الوطنية الموالية له بالإمكانات التي تتركز حكمها الاستبدادي.

ولم يتسنّم (الأفغون) حكم (أرض الخلد) قبل مروره بمراحل تدريبية أهلتة لهذا المنصب، وكان من أهم هذه المراحل عمله عميلاً لـ (وكالة الثعابين المركزية) التي ترمز للأجهزة المخابراتية الغربية، ولا سيّما الأمريكية (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ١٢٥، ٢٩٩). ويعترف (الأفغون) أمام (الخلد) بأنّه كان عميلاً فاعلاً في (وكالة الثعابين المركزية)، التي تسيطر على تحركات (الحيوانات) في (الغابة): "لا تنس بأنّي ثعبان، أي أنّي قبل أن أسلّط على رقابكم الرقيقة، كان عملي أن أسرق السمع وأنقل الأخبار إلى أولي الأمر الحقيقيين في هذه الغابة الذين يعرفون حقيقة كلّ ما يدور فيها" (سعيد، ٢٠١٥م، ١٢٣). إنّ هذا النص يؤكّد مضمون النص السابق، ويفصّل القول في تاريخ بعض السلطات الوطنية ما بعد المرحلة الاستعمارية، التي كانت من صنيعه الغرب؛ ولذلك لا تستطيع أن تخرج عن المسار الذي رسم لها، فضلاً عن أنّها تهتم بمصالحها وتدعيم حكمها فحسب، فقد "كان الزعيم قبل الاستقلال يجسّد آمال الشعب بوجه عام: الاستقلال، الحريّات السياسيّة، العزّة القوميّة. ولكنّه بعد الاستقلال، بدلاً من أن يجسّد حاجات الشعب تجسّداً محسوساً، وبدلاً من أن يكون رائد العزّة القوميّة الحقيقيّة (...). تراه يكشف عن وظيفته الصميمة ألا وهي أن يكون الرئيس العام لشركة المنتفعين" (فانون، ١٩٨٤م، ٩٣). أي أنّ الشعوب المُستعمرة عانت



كثيراً من السلطة الوطنيّة التي أعقبت المرحلة الاستعماريّة الفعلية، بعد أن توهمت بأن زوال الاستعمار سيغيّر حياتهم إلى الأفضل، ولكنّها لاقت القهر أيضاً من هذه السلطة.

إنّ (الأفعوان) قبل أن يكون حاكماً على (أرض الخلد)، وقبل أن يكون عميلاً لـ (وكالة الثعابين المركزيّة)، وقبل أن يكون (خدأ)، كان (نعامة) مقاتلة في زمن تحوّل (الصقور) إلى (نعام). كان قبل الانحدار الطبيعي (نعامة) تؤمن بمبدأ المقاومة، ولا سيّما مقاومة (الغراب) و(النسور) والنضال ضدّهما، ولكنّه تعرّض إلى نكسات كبيرة؛ بسبب اختلال ميزان القوى بينه وبين أعدائه الذين يمتلكون (السحر القديم)، و(السحر الأسود)، فضلاً عن امتلاكهم (سحر عش الغراب) الذي يرمز إلى القنبلة الذرية (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ٢١١، ٢١٣، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٩٢، ٢٩٤، ٣١٣). ومع ذلك فقد أبدى (الأفعوان) عندما كان (نعامة) شجاعة منقطعة النظير في مقاومة الأعداء على الرّغم من هزيمته في تلك الحرب؛ لأسباب مختلفة. بيد أن مقاومته لم تستمر طويلاً، إذ تخلّى عنها، بتأثير نوازعه الداخليّة، وبذرة الأنانيّة القابضة في نفسه، وإحساسه بأنّه (حيوان) دوني، فضلاً عن إغراءات (النسور) وترهيبهم، وحيلهم المحكمة: "دُحرنا ولكن ما فعلته في تلك الحرب الخاسرة، أتدري، رغم أننا كنّا نقاتل راجلين فقط إلا أنّ شدة صولاتنا على الغراب كانت تجعلها تتقافز كالجنادب ناسية أنّها طيور طائرة من شدة الرعب.. كان ما فعلته خلال تلك الحرب من أعمال مجيدة قد لفت أنظار عيون النسور المبتوثة فيما بيننا فأوصلته إليها (...). كنت أمتلك من ميزات القيادة الشيء الكثير، ولكنّي كنت أحمل في داخلي كشأن بقيّة الحيوانات ضعفاً كبيراً، ولم يكن إلا الشعور بالدونيّة إزاء الطيور لإحساسي بأنّها أفضل منّا بكثير، وحينما تمّ الاتصال بي من قبل النسور وتسلمت دعوتها لزيارة بلادها، لم أتردد بل سافرت على الفور ومن دون تفكير، وهناك، رأيت ما أنساني البقيّة الباقية من أحلامي النعاميّة (...). لم أصمد أمام حملة الترغيب والترهيب التي مارسوها عليّ" (سعيد، ٢٠١٥م، ٢٤٢-٢٤٣). يشير النص إلى وضع المقاومة العربيّة، ودورها في مقاومة الاستكبار الإمبريالي والصهيوني، إذ كانت تؤدّي دوراً بطولياً لافتاً على الرّغم من قلّة الإمكانيات، وقوّة الأعداء واتّحادهم ضدّها. ولكن القوى الاستعماريّة لها غير طريقة في تحجيم هذا المقاومة، مثل استعمال القوّة المفرطة في المواجهة وهو الفعل الذي يطول جمهور المقاومة، واختراقها واستمالتها بالإغراءات المختلفة وهو الفعل الذي يطول بعض قادتها والأمثلة التاريخيّة التي تؤكد ذلك كثيرة. وينتقد النص أيضاً بعض حركات المقاومة العربيّة، التي تبدأ عملها المقاوم ضد الاستعمار بمشروع نهضوي وكفاحي غاية في الحماس، يستند إلى المبادئ القوميّة والقيم الوطنيّة، بيد أنّ هذه الحركات تضعف وتضمحلّ، بفعل



ضغوط العامل النفسي عند بعض قادتها الذين يشعرون بعقدة النقص إزاء الآخر الاستعماري المهيمن، فينكصون بعد حالة التوهج والانطلاق.

أحكمت (النسور) قبضتها على (الأفعوان) عندما كان (نعامة) بوسائل مختلفة، وسهل أمر ذلك قدرته على التحول إلى (حيوان) آخر متى شاء (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ٢٢١)، ليستسلم بعدها إلى مخرجات نظرية التفسخ والانحدار الطبيعي، ويتحول بعدها إلى (خلد)، ومن ثم يأخذ صورته النهائية بوصفه (أفعواناً): "انتبهت فجأة إلى أنني كنت قد بدأت باستعمال أطرافي الأربعة بالسير من دون أن أنتبه! ركضت بأقصى سرعة إلى النهر لأرى على صفحة مياهه ما حلّ بي، فاكتشفت أنني قد فقدت ريشي أيضاً! ذلك الريش الذي كان هو مبعث فخري في الماضي، الريش الأمل الذي كان يجعل اللحم بالغد الأفضل لنا أمراً مشروعاً، لأنه كان الأمل بمعاودة الطيران يوماً (...). فعدت لأجد بلادي وقد خلت من النعام" (سعيد، ٢٠١٥م، ٢٤٤). ينتقد النص الذات نقداً لاذعاً؛ لتخليها عن مشروع المقاومة على الرغم من أن دواعي التمسك بهذا المشروع ظلّت قائمة، إذ لا تزال البلدان العربيّة تعاني تدخل القوى العالميّة الكبرى في شؤونها، وتسيطر على قراراتها ومقرراتها، وتحتلّ جزءاً من أراضيها. إنّ الذات صارت تمشي في ركاب مشروع الآخر ونهجه، بعد أن جرّدها من الوسائل والأدوات، التي يمكن بها أن تتغير وضعها السيئ، والتي أشار إليها النص بفقدان (الريش).

إنّ عمليّة تحوّل (النعامة) إلى (أفعوان)، التي عملت (النسور) بجِدّ على اكمالها على أتم وجه، لم تكن غاية بحدّ ذاتها، وإنّما كانت وسيلة لغاية أكبر، وفضلاً عن أنّ هذا التحوّل قد وأد مشروع المقاومة الوليد في مهده، فإنّ (النسور) سعت إلى اسناد مهمّات كثيرة إلى (الأفعوان) تصبّ في مصلحتها، وكان من أهمّ تلك المهمّات، أن يكون (الأفعوان) حارسها الأمين على (الكء) الذي يرمز إلى النفط: "حينما وضعتني النسور هنا، كانت تعرف أنّ أوان رحيلها قد حان بعد أن أنهكت نفسها بحروبها المتواصلة، ولكنّها لم تحتل فكرة أن تترك كلّ الخيرات التي تضمها أرض النعام فوظفتني لكي أكون وكيلها.

- ماذا؟ وكيل! وكيل ماذا؟!

- وكيل حاصلات، ومراقب كء" (سعيد، ٢٠١٥م، ٢٦٦).

يشير النص الرمزي إلى استنزاف الثروات العربيّة العظيمة من القوى الإمبرياليّة الكبرى، بمساعدة بعض السلطات الوطنيّة، التي خضعت إلى الآخر الغربي في مرحلة ما بعد الكولونياليّة، وأصبحت وكيلاً لمراقبة مصالحه، ولا سيّما النفط الذي يتحكّم



الغرب بتقنيات انتاجه، وتحديد أسعاره، ومنافذ بيعه وتصريفه. ولا بدّ من التنبه على أنّ مصطلح ما بعد الكولونيالية الذي يعني أنّ الكولونيالية أصبحت - نظرياً- شيئاً ماضياً، هو مصطلح لا يعبر عن حقيقة علاقة الغرب بالمستعمرات القديمة؛ لأنّ "الكولونيالية لم تعد تُمارس كما كانت ما بين نهاية القرن الخامس عشر وأواسط القرن العشرين، [بل] عبر إدارة مباشرة وصريحة للحكام والمريّين من الدول المستعمرة" (تايسن، ٢٠٢١م، ٤٥١). إنّ حالة السيطرة على المصالح العربيّة من (ما وراء البحار)، تؤكّد زوال الاستعمار التقليدي بعد أنّ تقوّض؛ لأسباب مختلفة، وولادة استعمار جديد ما بعد كولونيالي مختبئ تحت عباءة العولمة، واقتصاد السوق، وإشاعة الأنموذج الغربي في العالم، إذ يحقق هذا الاستعمار الجديد مراميه، وينفّذ خطته بأسهل الطرق، ومن غير حروب أو احتلال أو استيطان أو ما شابه ذلك، بواسطة السلطة الوطنيّة المتعاونة معه. وهذا يعني أنّ انسحاب الاستعمار من المستعمرات انحصر في إزالة القوّات العسكريّة، ولكن قبل ذلك غرس نظام الحكومات المستعمرة في المستعمرات، وثقافة المستعمر وقيمه، التي تشوّه ثقافة الشعوب المستعمرة وقيمها، فضلاً عن أنّ المستعمرين قد ورثوا ميراثاً سيكولوجياً ذا صورة ذاتيّة وسلبية من تلك الحقبة، أبعدهم عن ثقافتهم الأصليّة، بحيث فقدوا كثيراً من ثقافة ما قبل الاستعمار وقيمه (ينظر: تايسن، ٢٠٢١م، ٤٤١).

وعلى الرّغم من أنّ (الأفعوان) قد صار حاكماً على (أرض الخلدة)، وكان مدعوماً من (النسور)، التي ترعاه وتدعم حكمه وتقويه، وانتقال عمالته إلى (النسر الأصلع) الذي يرمز إلى أمريكا في الوقت الحاضر (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ٢٦٩)، فإنّ له مخاوفه الكبيرة أيضاً، وكانت أكبر هذه المخاوف أنّ ترجع (الصقور) - أو بالأحرى ما تبقى منها وهي قليلة جداً- إلى مسرح أحداث (الغابة)، فتلتقطه من غير أنّ يشعر:

- لو كنتم تملكون عقولكم لعرفتم أنّ الأفاعي تخاف من أشياء كثيرة جداً، وخاصة من الصقور (...).

- الصقور! (...).

- نعم، فالأفاعي تخاف كثيراً من الصقور التي تنتقض عليها من الجو فتلتقطها قبل أنّ تنتبه (سعيد، ٢٠١٥م، ٢٢٦-٢٢٧).

.(٢٢٧)

فإذا كانت (الصقور) بصورة عامّة ترمز إلى (العرب) في زمن قوتهم وتأثير الحضاري، فإنّ (الصقور) القليلة الباقية في الوقت الحاضر ترمز الى الأمل العربي في الخروج من مأزقه الحضاري. وتنتصب هنا البنية التفاوضيّة من جديد في قلب المأساة



والنكوص والتراجع؛ لأنّ ثمة ضوء يلوح في نهاية النفق، وثمة حال يمكن أن يتغيّر إلى الأحسن، بالتخلّص من عملاء المستعمر، ورقبة الاستعمار الجديد، بوساطة العرب الذين يعون قيمة تراثهم الحضاري، وماضيهم المشرف، ويدركون مدى القوة الكامنة في هويتهم النقية. وعلى الرّغم من أنّ الذين يؤمنون بهذا المشروع كثيرون، بيد أنّهم قليلون بالمقارنة مع كثرة الأعداء وقوتهم، فضلاً عن أنّهم منقرّون ومقيدون، لا تسمح الدوائر الاستعماريّة بأن يلتّم شملهم (بنظر: سعيد، ٢٠١٥م، ٢٦١)، ولكن هنالك أملاً يبقى متاحاً بدلالة بذرة التفاؤل هذه.

رابعاً/الرمز الدال على أمريكا والصهيونيّة

امتزج في الرواية الرمز الدال على أمريكا بالرمز الدال على اليهوديّة الانتهازيّة أو الصهيونيّة العالميّة، وتقارب الرمزان في مواقف كثيرة منها، فضلاً عن أنّ كلّ واحد منهما كان مكتملاً للآخر؛ لذلك سنتناول هذين الرمزتين في فقرة واحدة. وتتوّج الرمز الدال على أمريكا في الرواية، فمنه الدال عليها قبل أن يكتشفها الأوربيّ ويقتمحها، وهو: (أرض الوعول)، والرمز الدال عليها عندما سيطر عليها الأوربيّون حينما كانت عالماً جديداً وهو: (دولة الجبل)، والرمز الدال عليها أثناء الاستقرار النسبي بعد الحرب الأهليّة الأمريكيّة، وهو (النسر جرجي)، والرمز الدال عليها في الوقت الحالي (الولايات المتحدة الأمريكيّة) وهو: (النسر الأصلع)، فضلاً عن رموز أخرى دلّت على شخصيات أمريكيّة مؤثّرة في المشهد الأمريكي والعالمي، أو أحداث كانت مادّتها أمريكاً. وقد سبق التعرّض إلى رمز (أرض الوعول) في فقرة الاستكشافات الجغرافيّة؛ لذلك سنضرب عنه صفحاً في هذه الفقرة، وسنهتم بالرمز الدال على أمريكا الاستعماريّة، وليست الأصليّة.

برزت (دولة الجبل) التي يقودها (النسور) بعد تلاشي مقاومة (الوعول) التي ترمز إلى سكّان أمريكا الأصليين، إذ ظهرت (دولة الجبل) بوصفها أرض الأحلام أو أرض تحقيق الأحلام، التي تغري (حيوانات الغابة) بالهجرة إليها: "بعد توقّف الوعول عن القتال نهائياً بسبب تبديد قوتها وفناء مقاتليها، أرسل أفاق الرسل من النسور إلى أنحاء الغابة المتفرّقة لكي ينشروا خبر الدولة الناشئة هناك، ويحدّثوا الحيوانات عن خيرات الجبل وثرواته الواعدة حتّى يكون أرض الأحلام الجديدة التي تدعوهم للهجرة إليها لتحقيق أحلامهم هناك" (سعيد، ٢٠١٥م، ٨١). إنّ بناء دولة الأحلام جاء على حساب الأصليين الذين سحقهم أورباً سحقاً، ولم يعيروا أي اهتمام لصورتهم الإنسانيّة، وعدّوهم مخلوقات بدائيّة ليس لها علاقة بجنس البشر، استناداً إلى التفكير العرقاني (Racist) الذي يوطّر عقل الأوربيّ. ثم سعت هذه الدولة الناشئة إلى إحداث تغيير ديموغرافي كبير في هذه الأرض، عن



طريق إغراء الأوربيين وغيرهم بالاستيطان فيها، وهذا أسلوب معتمد من الدول الاستعمارية، حينما تريد السيطرة على المستعمرات وإخضاعها.

عانت (دولة الجبل) في بداية نشوئها من مشاكل كبرى، ولا سيما بعد انتهاء مهمة (أفاق)، وتركه الدولة الناشئة من غير قيادة قوية تسيطر على زمام الأمور، وهو الأمر الذي أدى إلى نشوب الحرب بين (حيوانات) الجنوب و(حيوانات) الشمال، فصارت مشتتة مثلما كانت (الوعول)، وتدخلت في هذه الحرب (الحيوانات) التي كانت تحكم (الغابة) القديمة، مثل: (ملك النسور)، و(الديوك)، و(الثيران) التي ترمز إلى إسبانيا، وقد كان هذا التدخل علامة فارقة في تاريخ (دولة الجبل): "بعد رحيل أفاق تشرذمت النسور ودفعتها أطماعها إلى انفراد كل منها بقطعة أرض كبيرة وراحت تتقاتل فيما بينها للحفاظ على ملكياتها، فكان من سخرية القدر أنّها بتفرّقها أصبحت مثل الوعول التي وصمتها هي بالتخلف لأنّها كانت متفرقة!.. وفيما هي منشغلة بمعاركها الداخلية نزل عليها جيش ملك النسور القوي فأسقط في يدها ولم تحرك ساكناً لمقاومته، خاصة وأنه كان مدعوما بجيش الديوك الذي اقتسم أراضي قبيلة (المقاتل الذبيح) مع النسور وجيش الثيران الذي سيطر على أراضي قبيلة "قوس قزح" في الجنوب" (سعيد، ٢٠١٥م، ٨٣). يصف النص الحرب الأهلية الأمريكية الدامية، التي دارت بين قوى الجنوب وقوى الشمال، أو بين قوى (الاتحاد) والانفصاليين في المدة من ١٨٦١م إلى ١٨٦٥م؛ بسبب التنافس الاقتصادي بينهما الذي أجهه الصراع بين الطبقتين الغنيتين في كلا الجانبين، وانتهت بانتصار قوى (الاتحاد) وبروز (أمريكا) الحديثة على مسرح الأحداث في العالم، ولكن بعد أن حدثت مجازر بشرية يندى لها جبين الإنسانية، قامت بها الأطراف المتصارعة، مما يدل على أنّ (أمريكا) بنت مجدها على إراقة دماء السكان الأصليين، والمهاجرين الأوربيين على حدٍ سواء.

ومع بروز (النسر جرجي) شخصية مؤثرة في أحداث (الغابة) الذي يرمز إلى أمريكا الحديثة أو المستقرة نسبياً، والذي كانت أفعاله مركزية في الرواية، سواء عن طريق شخصيته، أو شخصية سبطه (النسر الأصلع) الذي يرمز إلى أمريكا في الراهن، برز (الغراب) بصورة أكبر وأكثر كثافة من ذي قبل على مسرح الأحداث، ليكون مشاركاً فاعلاً في صراعات (الغابة)، وصدّامات (دولة الجبل) الناشئة، وقد كان (الغراب) حاضراً فيما سبق في نبوءة (أفاق)، قبل وصول (الغراب) فعلياً إلى (دولة الجبل): "إنّ الغربان ستأتي يوماً إلى الجبل لا محالة، فإذا أردتم راحة بالكم وأمن دولتكم فلا تدعوا غراباً واحداً على جبلكم هذا، لأنّها طيور خبيثة إذا دخلت مكاناً أفسدته ولا يهنا لها بال حتى تنخر في كيانه كالسوسة" (سعيد، ٢٠١٥م، ٨٣). إنّ هذا



(الاستباق) يعني أن تصرفات اليهودية الانتهازية كانت معروفة من الأوربي، إذ تسعى إلى أن تفيد من الأحداث الجديدة في العالم في خدمة مصالحها، فتستقر في الدول التي تعتقد أنها ستكون ذات شأن في المستقبل مثل: أمريكا، فتخترق المجتمع التي تستقر فيه وتتمكن منه، وتؤثر في قرارات السلطة التي تحكمه بشتى الوسائل والسبل المشروعة وغير المشروعة.

وترمز شخصية (الغراب) في الرواية - كما أشرنا سابقاً- إلى اليهودية الانتهازية، أو إلى الصهيونية العالمية، ومن الطريف أن يقترب هذا الرمز من منحى اللفظ والمضمون برمز (سحر عش الغراب) في الرواية، فكلاهما يسببان دمار الإنسانية، ويشكلان بؤرة توتر في العالم. وقد كان (الغراب) الشخصية الروائية الفاعلة في أحداث (الغابة) منذ عصر الممالك القديمة في (الغابة) وأحداثها وصراعاتها إلى الزمن الحاضر. بل كان كثيراً ما يسيّر أحداث (الغابة) على وفق مصلحته الذاتية، وكان صبوراً متأنياً يخطط لكل شيء، إن كان صغيراً أو كبيراً. وإن أول ما يلفت النظر في هذه الشخصية، إنها تتصف بالثبات، وعدم التحول إلى (حيوانات) أخرى منحدره أو متطورة، وكانت دلالة رمزها ثابتة لم تنزع أو تتحول أو تتحوّل إلى دلالات أخرى، فقد بدأت غراباً وانتهت غراباً، بخلاف الدلالات التي تتضمنها الرموز الدالة على (الحيوانات) الرئيسية الأخرى، مثل: (الصقور)، و(النسور)، و(الدببة) التي تحولت إلى أسماء ودلالات أخرى، وهو الأمر الذي جعل شخصية (الغراب) تتخذ بناءً واحداً في الرواية من بدايتها إلى نهايتها.

اتّصفت شخصية (الغراب) بصفات شائنة كان من أهمّها: الأنانية، والانتهازية، والاحتيال، والغش، والمؤامرة، واحتقار الآخرين، وتسفيه المعتقدات، والاتجار بالحروب، وازدراء القيم، وغيرها من الصفات السلبية التي أطرت شخصيته. واتّصفت أيضاً بصفات إيجابية، كان من أهمّها: الذكاء، والتخطيط، والصبر، والتأني، والفاعلية، والثراء، وإيمانه بحقوقه، واحتقاره بهويته، بيد أنه استعمل هذه الصفات الشائنة والحسنة على حدٍ سواء في قهر (الحيوانات) وتدمير (الغابة)، للوصول إلى غاياته المشبوهة. واتّخذ (الغراب) موقعاً له قريباً من مصدر القرار على مدى زمن الرواية، بل كان يدفع (الحيوانات) الأخرى إلى اتخاذ القرارات التي تصبّ في مجرى منفعته، أو يشارك في صنع القرار الذي يهّمه بمكره ودهائه، كما كان ينتقل من حليف إلى آخر بحسب ما تقتضي مصلحته، ولكن تحالفه الأكبر كان مع (النسر الأصلع)؛ ولذلك تداخل رمز (الغراب) مع الرموز الدالة على أمريكا كثيراً وعلى مدى زمن الرواية.



اتصل (الغراب) بالنسر (جرجي) حينما توقّع صعود نجمه في (الغابة)، وأقول نجم باقي (النسور)، وأراد أن يكون بقره منذ مرحلة صعوده الأولى؛ ليسير أحداث (الغابة) بما يشتهي، بعد أن تنكّر لـ (ملك النسور) الذي بدت على دولته ملامح التقهقر والضعف إزاء (دولة الجبل) الناشئة، إذ بيّن حوار (الغراب) مع (جرجي) ذلك بجلاء:

- أتيتك بكلّ الخير الذي تضمه نفسي المحبّة لشخصكم المبجل (...).
- وهل أحببت أحداً يوماً أيها الوزير الخائن؟! (...).
- أصلح أسد جلالته الرئيس، تقصد تركي لملك النسور أليس كذلك؟!.
- أقصد هذا، وغيره، فأنا لم أصادف طوال حياتي حيواناً يحبك.
- هذا لأنهم لا يعرفونني يا فخامة الرئيس. أما عن تركي لملك النسور فلأنه ملك ظالم (...).
- فما الذي تغيّر إذا؟!.
- ما الذي تغيّر! لقد تغيّر كلّ شيء، فقد وجدت ضالّتي، وتحقّق حلمي القديم، لقد ولد عالم جديد ولا يسعني إلا أن أكون من خدامه (...).
- حلم قديم وعالم جديد، أنا لم أفهم ما تعني!.
- أعني دولتكم العظيمة يا صاحب العظمة، فهي الأمل الذي كنت أعيش لأجله، والحلم الذي طال انتظاري له (سعيد، ٢٠١٥، ١١٠-١١١).

إنّ الصهيونيّة العالميّة تسعى إلى الإفادة من الأحداث الكبرى؛ لتعزيز مكانة اليهود القوميّة، وتحقيق مآربهم، وتأكيد هويّتهم، إذ إنّ الإيديولوجيا الصهيونيّة تتضمّن الانتقال من حليف إلى آخر بحسب ما يصبّ في مصلحة الصهيونيّة، وبالفعل صار تحالفها الأول مع أمريكا بعد أن كان مع بريطانيا، عندما بدأت الأولى بالتقدّم، وعانت الثانية حالة من التراجع، وثمة ربط مفصلي بين الحلم الأمريكي والحلم القومي اليهودي الذي أشار إليه النص بوضوح.



بدأ التحالف الاستراتيجي بين (الغراب) و(ودولة الجبل) عن طريق (النسر جرجي)، وصولاً إلى الوقت الراهن، بالتحالف مع سبطه (النسر الأصلع)، وتعزز هذا التحالف بتزويج (ابنة الغراب) التي ترمز إلى الحركة الصهيونية بـ (النسر جرجي)، بعد أن أرغم (جرجي) على ذلك؛ لأنه كان مديناً (للغراب) بمبالغ طائلة (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ١٣٢). وأبدى (الغراب) مهارة واسعة في إدامة هذا التحالف عن طريق السيطرة على ما يدور في (الغابة) وإشعار (النسر جرجي) بذلك، وسعى إلى معرفة كل شيء، وتجيير ذلك لمصلحة التحالف، بتجنيد (الوطاويط) التي ترمز إلى الجواسيس، التي تنقل له أخبار (الغابة) وأحداثها:

- ألم تسمع بالوطاويط الكثيرة التي جلبتها معي؟
- نعم، ولكني لم أعرف ما الذي قد تفعله بها.
- لقد دربتها لكي تنقل ما أشاء من أخبار وإلى من أريد وهي تفعل ذلك كالجن.
- ولكنها لا تطير إلا في الليل.

عندها ضحك الغراب وقال:

- وهل هناك أفضل من الليل لنقل الأخبار وسماعها يا مولاي؟ (سعيد، ٢٠١٥م، ١١٧-١١٨).

يحيل هذا النص المعلن إلى مضمرة يؤكد أنّ الصهيونية العالمية تعمل في الخفاء حتى تحقيق مطامعها المشبوهة، فهي تخفي وراء الأحداث الكبرى، ولا تظهر على سطحها على الرغم من أثرها الكبير فيها، بحوك المؤامرات والدسائس على الآخرين، ومن هذه الأساليب: استعمال النساء في الوصول إلى المراكز السياسية، التي أشارت إليه الرواية بتزويج (ابنة الغراب) بالنسر (جرجي). وهكذا فعلت اليهودية الانتهازية في غير زمن من الأزمان، ومثال على ذلك: استعمالها (سحبون اليهودية) في الإطاحة بعرش (جورج الثالث) ملك بريطانيا، واختراق الارستقراطية البريطانية صاحبة النفوذ على مراكز القوى في بريطانيا، حتى أصبح عدد الأمراء الذين تجري في عروقهم الدماء اليهودية ستة وعشرين أميراً (ينظر: شاكرا، ٢٠٠٢م، ٢٣٩). لقد استعادت الرواية هذه الحادثة أو القصة التاريخية، ووظفتها بشيء من الإيهام، لصلتها بالإيديولوجيا الصهيونية.

ولا يتردد (الغراب) في التضحية ببعض أبناء جنسه (الغرابان)؛ لتحقيق حلم التمكّن والسيطرة المنشود، بل إنّ التضحية ببعض

(الغرابان) ستكون باباً من أبواب الخير، التي تُعجل بإنجاز حلم (الغراب) الكبير بمساعدة (نسر الجبل):



- ولكنّ الآلاف من الغربيان يقتلون كلّ يوم!.
- نعم، ولكن ذلك سيكون خيراً (...).
- ولكن، كيف، كيف يكون القتل خيراً؟! (...).
- حينما يكون هو الحجة التي نبني عليها أسس تحقيق ما كنّا نحلم به منذ آلاف السنين (سعيد، ٢٠١٥م، ١٩٧).
تستغل الصهيونية العالمية ما قيل عن أنّ هنالك مذابحاً طالت اليهود في العالم، ولا سيّما في ألمانيا أثناء الحكم النازي، وهو ما أضطّح عليه بـ (الهولوكوست) (*). وفعلاً مثلما أشار النص الرمزي، فقد أفادت الصهيونية العالمية من هذا الأمر، عن طريق الحركة الصهيونية وإيديولوجيتها التي "تحتوي على قسط كبير من الأوهام وادعاءات وتزييف التاريخ" (المسيري، ١٩٨٢م، ٨).
فعظمت تقديم اليهود بمظهر الضحية، واستغلال ذلك لتحقيق حلم الدولة الدينية القومية اليهودية العنصرية. وهذا الأمر يظهر أيضاً بجلاء النزعة الطبقيّة في التفكير اليهودي، فاليهودي في الفكر الصهيونيّ ليس جنساً واحداً، وإنما على طبقتين دنيا وعليا، إذ تستغل الطبقة العليا اليهودية مآسي الطبقة الدنيا في تنفيذ مشاريعها التوسعية.
إنّ (سيطرة) الغراب التامة على قرار (النسر الأصلع)، تفرز حالة المكاشفة والتعريف بحجم كلّ طرف من الطرفين المتحالفين، وفي هذا الشأن يبرز (الغراب) بوصفه المؤنّر الأول في أحداث (الغابة)، أمّا (النسر الأصلع) فيظهر على ما يبدو أنّه مجرد تابع له:
- يا ولدي، أنت مجرد موظف، وإياك أنّ تطمع بما هو ليس لك.
- ماذا؟ موظف! ولكنني رئيس البلاد (...).
- ومع ذلك موظف، أتريد أن تقال من منصبك منذ الغد؟ (سعيد، ٢٠٢٥م، ٢٩٦).

أثناء الحرب العالمية الثانية كتب حاخام يهودي يدعى (فاسميندل) عمّا أسماه معسكر الإبادة في (أوشفيتز) مستنداً إلى شهادات * سلوفاكيين. فقام مع منظمات يهودية بشنّ حملة دعائية لهذه (المذابح) في أوربا. كما روج لهذه الأكاذوبة اليهودي الروسي (إيليا إرنبورغ) في حملة دعائية واسعة. وبعد الحرب، تم استخدام وسائل الخداع السينمائي والتلاعب بالصّور من أجل إثبات المحرقة وأفران الغاز التي أحرق فيها اليهود على حد زعمهم، كما غيرت معالم المعسكرات الألمانية؛ لإثبات تلك الأكاذيب. الهولوكوست حقيقتها الاستغلال الصهيوني لها، ندى الشقيفي/١١٢.



يحكي النص قضية تحكّم الصهيونية العالمية بالقرار الأمريكي، وهو إلى حدٍ ما حالة حقيقية، إذ تؤثر الصهيونية في القرار الأمريكي عن طريق شبكة الضغط والنفوذ الصهيوني في القرار الأمريكي، أو ما يسمّى باللوبي الصهيوني أو اللوبي الاسرائيلي (The Israel lobby) المتنفذ على أمريكا عبر مجموعة من المؤسسات والتجمّعات ومراكز الأبحاث مثل: (إيباك) والمنظمة الصهيونية الأمريكية، ومعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، التي تتحكّم بالقرارات السياسية والاقتصادية وغيرها في أمريكا، فضلاً عن أثرها الكبير في الانتخابات الرئاسية الأمريكية، التي أشار إليها النص بموضوع الإقالة من المنصب.

ومن جانب آخر، كان (الغراب) من ألد أعداء (النعام)؛ لأنه كان يعاني عقدة النقص إزاء تاريخ (النعام) وماضيهم التليد، ومن كونه عاش رديحاً من الزمن هامشاً تحت سلطة أجداد (النعام) عندما كانوا مركزاً ومنتأ، فضلاً عن الصراع الديني المحتدم بين الاثنين الذي استمر قروناً، وقد أجاب (الأفعوان) عن سؤال (الخلد) الحائر عن تلك العلاقة المتشجّبة بين (النعام) و(الغراب) بأنّ الخلاف له جذور تاريخية؛ لأنّ (الصقور) أجداد (النعام)، و(الصقور) في الماضي سحبوا البساط الحضاري والديني من (الغراب)، وجعلوه تابعاً لا متبوعاً. ويبدو أنّ التحالف بين (الغراب) و(نسر الجبل)، وأخيراً تحالفه مع (النسر الأصلع) كان موجّهاً بالدرجة الأولى ضدّ (الصقور) و(النعام)، بل إنّ (الغراب) هو الذي وجّه هذا التحالف هذه الوجهة؛ بسبب العداة التاريخي بينهما:

- لأنّ الغراب وبكلّ بساطة كان طوال عمره يحقد على الصقور.

- الصقور!

- نعم الصقور، أجداد النعام(سعيد، ٢٠١٥م، ٢٧٠).

يشير الحوار إلى أنّ صراع العرب مع القوى الاستعمارية والمتحالفة معها مثل: الصهيونية العالمية، لا يتعلق بالراهن أو بالمصالح الاستعمارية في الأراضي العربية فحسب، بل له جذور تاريخية، ودوافع دينية أيضاً، جعلت هذه القوى لا تكتفي باستغلال العرب، وإنّما سعت إلى قهرهم، والانتقام منهم، والحدّ عليهم؛ لأنّهم يمتلكون هويةً نقيّة، وتاريخاً، يشكّلان خطراً على هذه القوى، ولا سيّما الصهيونية، إذا حاول العرب بعثهما من جديد.



وعلى أساس ما سبق، يسعى (الغراب) إلى أن يجدد العداء التاريخي وصدام الهويات مع (الصقور) ويأزمهما، بعد أن بدأت موازين القوى تميل لصالحه؛ لامتلاكه الثروة والإسناد الغربي؛ لذلك كان دؤوباً في تحقيق خطته التوسعية، التي كان من أهمها الاستيطان في موقع مهم في (الغابة) وعلى وجه الخصوص في (أرض النعام) لمطامعه التاريخية فيها؛ لأنه عاش في هذه الأرض بوصفه هامشياً (ينظر: سعيد، ٢٠١٥م، ٢٣٧)، وهو الأمر الذي ولّد الأحقاد الدفينة في نفسه باتجاه (النعام). وقد سعى إلى ذلك بمساعدة (ملك النسور) في بداية الأمر، وإسناد (النسر الأصلع) فيما بعد، وبما يمتلكه من أموال طائلة اشترى بها (الأشجار) التي ترمز إلى البيوت والأراضي، ويبين ذلك الحوار بين (النسر الأصلع) و(الغراب):

- وما قلت عن شراء الأشجار من قبل الغرابان، ما الذي يفعلون بها وهناك من الأشجار في الغابة

ما لا يحصره عدّ ولا إحصاء!؟

- نعم ولكن هذه الأشجار ليست ملكا لهم كما ستكون تلك.

- ولكن تلك أيضا ملك للنعام!.

- في الوقت الحاضر، ولكنها لن تكون كذلك فيما بعد" (سعيد، ٢٠١٥م، ١٨٤).

يصف النص الممهدات الصهيونية لاحتلال جزء مهم من الأراضي العربية (فلسطين)، وقد تنوّعت الوسائل في تحقيق ذلك، وكان من أهم تلك الوسائل: الدعم الغربي، والمال، والاحتلال، والقوة المفرطة، وشراء الأراضي العربية بأثمان بخسة، تمهيداً للاستيطان الفعلي، وهذا يعني أنّ الصهيونية كانت منهمكة في تحقيق ما تصبو إليه، في الوقت الذي كانت فيه العرب تغط في وهاد عميق من النوم. إنّ النص يتضمن نقداً يسيّر في اتجاهين مختلفين، الأول: باتجاه (الصهيونية) كونها حركة توسعية تعمل في الخفاء للاستيلاء على أرضٍ مأهولة منذ زمن بعيد من شعب معروف الهوية، والثاني: باتجاه الذات التي كانت غافلة عمّا يُحاك عليها من مؤامرات ولم تُحرّك ساكناً في تفكيك تلك المؤامرات قبل إحكامها.

نهاية المطاف

إذا كان استعمال الرمز أسلوباً قد تعاوره الأدباء بمختلف نتاجاتهم الإبداعية، فإنّ التحوّل الرمزي يبدو أسلوباً جديداً في النص الروائي، ولاسيما بهذه الكثافة الإيديولوجية. وفي الوقت الذي اتّسم فيه الرمز المضاد الذي يدلّ على الآخر بالثبات، أعني:



(الغراب)، كان الرمز الذي يدلّ على (العرب) متحوّلاً ومنزاحاً على مستوى اسم الرمز ودلالته، إذ بدأت الرموز الدالّة على العرب بـ (الصقر)، وبعده (النعام)، ثم (الخلد)، وأعقبه (الأفعوان)، وكان بالإمكان أن يصير إلى (الحشرات) لولا البنية التفاؤلية التي تضمّنتها الرواية. إنّ ثبات الرمز الدال على الآخر (الغراب) الذي دلّ على اليهودية الانتهازية أو الصهيونية العالمية لا يعني أنه تضمّن تقويماً إيجابياً؛ لأنّه ثبت على دلالته السلبية من بداية الرواية إلى نهايتها. وبغض الطرف عن الجانب الفني والأسلوبي في استعمال رمز الحيوان في هذه الرواية؛ لأنّ هذه القراءة لا تهتم به، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الرمز قد تضمّن دلالات إيديولوجية، ويهمّنا في هذا المقام الرمز الدال على (العرب) أكثر من سواه من الرموز، ويمكن إجمال هذه الدلالات الإيديولوجية بالآتي:

- ١- التذكير بتاريخ العرب الحضاري المبهر عن طريق رمز (الصقر).
- ٢- تشريح أسباب الانهيار العربي إزاء المستعمر الأوربي عن طريق رمز (النعام).
- ٣- توصيف الواقع العربي الحالي عن طريق رمز (الخلد).
- ٤- تعرية السلطة العربية الخاضعة إلى الدول الاستعمارية عن طريق رمز (الأفعوان).
- ٥- نقد الذات، بعد بيان صورتها الحقيقية غير المقبولة، وضعف تأثيرها في الأحداث.
- ٦- جلد الذات؛ لإحداث صدمة قويّة في المتلقّي، تشدّه إلى التفكير في تغيير واقعه الشاذ، ولا سيّما إذا تداخل هذا المفهوم مع مفهومي: (الرقابة الذاتية) و(نقد الذات).
- ٧- إقامة مقارنة إيديولوجية واعية بين وضع العرب في زمن الحضارة ووضعهم في زمن الانكسار على مختلف الصعد، ولا سيّما السياسيّة والفكريّة والاقتصاديّة.
- ٨- نقد النظام الطبقي في البلاد العربيّة الذي يقسم الشعب إلى طبقات دنيا ومتوسّطة وعليا، إذ تسعى الطبقة العليا (الأفعوان) إلى احتواء الطبقة الدنيا (الخلد).
- ٩- ثمة بنية تفاؤلية تتوسط الانتكاسات العربيّة التي حفلت بها الرواية، تتضمّن إمكانية أن يسير الرمز الدال على العرب (الصقر) في عصر الزهو والحضارة العربية مسيرة دائريّة، وذلك بالرجوع من زمن (الخلد) إلى زمن (الصقر)،



بوساطة (الصقور) العربية المتنبّية من ذلك الزمن (الصقري)، فضلاً عن بنى تفاعلية أخرى أشرنا إليها في مكانها من البحث.

المصادر

- إبراهيم، د. عبد الله. (٢٠١٩م). المركزية الغربية. ط٢. بغداد. دار الكتب العلمية.
- أبو ديب، كمال. (١٩٨٥م). الأدب والإيديولوجيا، مجلة فصول، المجلد: الخامس، العدد: الرابع، الجزء: الثاني. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- أشكروفت، بيل، و جريفيث، جاريث، وتيفن، هيلين. (٢٠١٠م) دراسات ما بعد الكولونيالية - المفاهيم الرئيسية. ترجمة: أحمد الروبي، وأيمن حلمي، وعاطف عثمان. تقديم: كرمة سامي. ط١. القاهرة. المركز القومي للترجمة.
- أشكروفت، بيل، و غريفيث، جاريث، وتيفن، هيلين. (٢٠٠٦م) الرد بالكتابة - النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة. ترجمة: د. شهرت العالم، ط١. بيروت. المنظمة العربية.
- بارث، ج. روبرث، و اليسوعي. (١٩٩٢م) الخيال الرمزي - كولريج والتقليد الرومانسي. ترجمة: د. عيسى علي العاكوب. مراجعة: د. خليفة عيسى العزابي. بيروت. معهد الإنماء العربي.
- باركر، كريس. (٢٠١٨م). معجم الدراسات الثقافية. ترجمة: جمال بلقاسم. ط١. القاهرة. رؤية للنشر والتوزيع.
- تايسن، لويس. (٢٠٢١م). النظرية النقدية من التحليل النفسي إلى ما بعد الكولونيالية. ترجمة وتقديم: لحسن أحمامة. ط١. دمشق. دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر.
- تودوروف، تزفيتان. (١٩٩٢م). فتح أمريكا - مسألة الآخر. ترجمة: بشير السباعي. تقديم: فريال جبوري غزول. ط١. القاهرة. سينا للنشر.
- ثامر، فاضل. (٢٠٢١م). الرواية العربية في دائرة التأويل. ط١. بغداد. منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.



- الداھي، د. محمد. (٢٠١٣م). صورة الأنا والآخر في السرد. ط١. القاهرة. رؤية للنشر والتوزيع. القاهرة.
- درّاج، فيصل. (٢٠٠٤م). الرواية وتأويل التاريخ. ط١. بيروت. المركز الثقافي العربي.
- رايان، مايكل، و إنكرام ، برات، وموسبول، حنا. (٢٠٢٢م) الدراسات الثقافية - مدخل تطبيقي. ترجمة وتحقيق وتقديم: د. خالد سهر. ط٢. بغداد. دار دجلة الأكاديمية.
- سعيد، سعد. (٢٠١٥م). خلدولوجيا. ط١. بغداد. سطور للنشر والتوزيع.
- شاکر، محمود. (٢٠٠٢م). موسوعة تاريخ اليهود. عمّان. دار أسامة. عمان.
- الشقيفي، ندى. (٢٠١١م). الهولوكوست حقيقتها والاستغلال الصهيوني لها. ط١. بيروت. اصدارات باحث للدراسات.
- شك، إرفن جميل (٢٠٠٣م) الاستشراق جنسياً. ترجمة: عدنان حسن. تقديم: ممدوح عدوان. مراجعة: زياد منى، ط١. بيروت. قُدُمس للنشر والتوزيع.
- طرابيشي، جورج. (١٩٩٧م). شرق وغرب رجولة وأنوثة - دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية. ط٤. بيروت. دار الطليعة للطباعة والنشر.
- عاتي، د. حسن كريم. (٢٠١٥م). الرمز في الخطاب الأدبي - دراسة نقدية. ط١. بغداد. دار الرسم للصحافة والنشر والتوزيع.
- العرابوي، ليلي (٢٠١٤). الذاكرة الجماعية - الأصل والتفرعات. مجلة أماراباك، المجلد: الخامس. العدد: الثالث عشر. الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا.
- فانون، فرانتز. (١٩٨٤م). معذبو الأرض، فرانتز. ترجمة: د. سامي الدروبي، ود. جمال الأتاسي، ط٥. بيروت. دار الطليعة للطباعة والنشر.



- لحميداني، د. حميد (١٩٩٠م). النقد الروائي والإيديولوجيا - من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النصّ الروائي. ط١. بيروت. المركز الثقافي العربي.
- لوكاش، جورج. (١٩٨٦م). الرواية التاريخية. ترجمة: د. صالح جواد الكاظم. ط٢. بغداد. دار الشؤون الثقافية العامة.
- المسيري، د. عبد الوهاب محمد. (١٩٨٢م). الإيديولوجية الصهيونية - دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة. (د. ط)، (سلسلة عالم المعرفة/٦٠). الكويت. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- هاينز، مايكل. (٢٠٠٩م). القوى العقلية - الحواس الخمس. ترجمة: د. عبد الرحمن الطيب. ط١. عمان. الأهلية للنشر والتوزيع.
- هونكه، زيغريد. (٢٠٠٠م). شمس العرب تسطع على الغرب. ترجمة: فاروق بيضون. ط٩. بيروت. دار صادر للنشر.
- واثنونغو، نجوجي (٢٠١١م). تصفية استعمار العقل. ترجمة: سعدي يوسف. (د. ط). دمشق. دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر.

References

- Abu Deeb, Kamal. (1985). Literature and Ideology, Fosoul Magazine, Volume: Fifth, Issue: Fourth, Part: Second. Cairo. Egyptian General Book Authority.
- Al-Arbawi, Laila (2014). Collective Memory – Origin and Branches. Amarabak Journal, Volume: V. Number: thirteen. Arab American Academy for Science and Technology.
- Al-Arbawi, Laila (2014). Collective Memory – Origin and Branches. Amarabak Journal, Volume: V. Number: thirteen. Arab American Academy for Science and Technology.



- -Al-Shaqafi, Nada. (2011). The truth of the Holocaust and the Zionist exploitation of it. i 1. Beirut. Research publications for studies.
- Ashcroft, Bill, Griffith, Gareth, and Tiffin, Helen. (2006) Reply in writing – theory and practice in the etiquette of the ancient colonies. Translation: Dr. Famous world, 1st ed. Beirut. Arab Organization.
- Ashcroft, Bill, Griffith, Gareth, and Tiffin, Helen. (2010) Postcolonial studies – the main concepts. Translation: Ahmed Al-Rubi, Ayman Helmy, and Atef Othman. Presented by: Karma Sami. i 1. Cairo. National Center for Translation.
- Atti, Dr. Hassan Karim. (2015). The symbol in literary discourse – a critical study. i 1. Baghdad. Dar Al-Rawsam for press, publishing and distribution.
- Atti, Dr. Hassan Karim. (2015). The symbol in literary discourse – a critical study. i 1. Baghdad. Dar Al-Rosem for press, publishing and distribution.
- Barth, c. Robert, the Jesuit. (1992) The Symbolic Imagination – Coleridge and the Romantic Tradition. Translation: Dr. Issa Ali Al-Akoub. Review: Dr. Khalifa Issa Al-Azaby. Beirut. Arab Development Institute.
- Dahi, Dr. Mohammed. (2013). The image of the ego and the other in the narrative. Dr.. Mohammed Al Dahi. 1st floor, Cairo. Vision for publishing and distribution. Cairo.
- Darrag, Faisal. (2004). Novel and interpretation of history. i 1 . Beirut. Arab Cultural Center.



- -Haynes, Michael. (2009). Mental powers – the five senses. Translation: Dr. Abdul Rahman is good. i 1. Amman. Eligibility for publication and distribution.
- Honk, Sigrid. (2000). The sun rises on the Arabian Peninsula from the west. Translation: Farouk Baydoun. 9. Beirut. Sader Publishing House.
- Ibrahim, Dr. Abdullah. (2019). Western Central. i 2. Baghdad. Scientific Books press.
- Parker, Chris. (2018). Dictionary of Cultural Studies. Translation: Jamal Belkacem. i 1. Cairo. Vision for publishing and distribution.
- Ryan, Michael, and Incram, Pratt, and Museol, Hanna. (2022) Cultural Studies – An Applied Introduction. Translation, investigation and presentation: d. Khaled Saher. i 2. Baghdad. Degla Academic House.
- -Said, Saad. (2015). Chaldeology. i 1. Baghdad. Structures for publishing and distribution.
- -Shak, Irvin Jamil (2003) Sexual Orientalism. Translation: Adnan Hassan. Presented by: Mamdouh Adwan. Revision: Ziad Mona, 1st Edition. Beirut. Qadmus for Publishing and Distribution.
- -Shak, Irvin Jamil (2003) Sexual Orientalism. Translation: Adnan Hassan. Presented by: Mamdouh Adwan. Revision: Ziad Mona, 1st Edition. Beirut. Qadmus for Publishing and Distribution.
- -Shakir, Mahmoud. (2002). Encyclopedia of Jewish History. Amman. Osama's press. Amman.



- -Tarabishi, George. (1997). East and West of masculinity and femininity: A study of the crisis of gender and civilization in the Arabic novel. I 4. Beirut. Dar Al-Tali'a for printing and publishing.
- -Tarabishi, George. (1997). East and West of masculinity and femininity: A study of the crisis of gender and civilization in the Arabic novel. I 4. Beirut. Dar Al-Tali'a for printing and publishing.
- Thamer, Fadel. (2021). The Arabic novel in the circle of interpretation. i 1. Baghdad. Publications of the General Union of Writers in Iraq.
- Thyssen, Lewis. (2021). Critical theory from psychoanalysis to postcolonialism. Translated and presented by: Lahsan Hamama. i 1. Damascus. Dar Al Takween for writing, translation and publishing.
- Todorov, Tzvetan. (1992). Conquest of America – The Question of the Other. Translation: Bashir El Sebaei. Presented by: Feryal Jabouri Ghazoul. i 1. Cairo. Sina Publishing.
- -Wathiongo, Ngogi (2011). Decolonizing the mind. Translation: Saadi Youssef. (Dr. i). Damascus. Dar Al Takween for writing, translation and publishing.